بلاد الحجاز خلال النّصف الثّاني من القرن الثّامن الهجري/ الرّابع عشر الميلادي في ضوء رحلة ابن الصبّاح الأندلسي

د. جمال عبدولي

المعهد العالي للدّراسات التّطبيقيّة في الإنسانيّات / جامعة تونس

الملخص

يسعى هذا البحث إلى رصد الصّورة التّاريخيّة لبلاد الحجاز خلال النّصف الثّاني من القرن الثّامن الهجري/ الرّابع عشر الميلادي في ضوء ما أورده عنها الرحّالة الأندلسي عبد اللّه بن الصبّاح في رحلته، التي غشيت مختلف بلدان المشرق الإسلامي انطلاقا من موطنه الأندلس، والتي كان من أبرز أهدافها أداء فريضة الحجّ وزيارة الأراضي المقدّسة. ومن أهمّ ما حوته رحلة ابن الصبّاح الأندلسي عن بلاد الحجاز خلال المرحلة التّاريخيّة المشار إليها تسليطها الضّوء على كثير من الخصائص الجغرافيّة والعمرانيّة لهذا الإقليم حيث قدّمت لنا وصفا دقيقا للعديد من المسالك والمدن الحجازيّة بما حوته من معالم ومواقع، فضلا عمّا أورده هذا الرحّالة كشاهد عيان من أخبار قيّمة ونادرة عن مظاهر الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة السّائدة بمختلف أرجاء تلك منطقة .

The Hedjaz during the second half of the VIIIth c H / XIV th c J. C through the Moorish Abdallah ibn Assabbah's Travel

Dr. Jamel Abdouli

Higher Institute of Applied Sciences in Humanities of Tunis / University of Tuni

Abstract

This article proposes to examine the historical image of the region of Hedjaz during the second half of the VIIIth c H / XIV th c J. C through the Moorish Abdallah ibn Assabbah's travel which browsed the Muslim East from Andalusia. In his travel which the main aims was to make pilgrimage and to visit the holy lands, Ibn Assabah provided a detailed description of many Hedjaz routes and cities with their sites and monuments. In addition, this traveler recall as eyewitness a precious and rare information about the aspects of economic and social life in different areas of the region of Hedjaz.

المقدّمة:

حظيت بلاد الحجاز على امتداد العهود الإسلاميّة المتعاقبة باهتمام كثير من الرحّالة المغاربة والأندلسيّين، الذين توافدوا عليها بدافع أداء فريضة الحجّ واستطلاع آثار السّيرة النّبويّة[١]. وقد ترك لنا أغلب هؤلاء الرحّالة مدوّنات سجّلوا فيها ارتساماتهم ومشاهداتهم عن هذه المنطقة المقدّسة من العالم الإسلامي، فوصفوا جغرافيّة البلاد وعمرانها والحجّ ومناسكه، ثمّ تحدّثوا عن العباد وعاداتهم في قالب أدبيّ متميّز[٢]. وقد مثّلت هذه الرّحلات الحجّيّة المغربيّة والأندلسيّة بفضل جهود جمهرة من الباحثين المعاصرين في نشرها والتّعريف بها إضافة مصدريّة هامّة بالنّسبة إلى الدّارسين المهتمّين بتاريخ الحجاز لاسيّما خلال الفترة الإسلاميّة الوسيطة منه. لكنّ إذا كانت جلّ هذه الرّحلات وإلى زمن غير بعيد قد تمّت دراستها والاستفادة منها كمصدر من مصادر تاريخ الحجاز خلال العهود الإسلاميّة المختلفة [٣]، فإنّ رحلة ابن الصبّاح الأندلسي[٤] والتي قادته إلى بلاد الحرمين خلال النّصف الثّاني من القرن الثّامن الهجري/ الرّابع عشر الميلادي لا تزال حتّى السّاعة مغمورة ومجهولة عند جمهور غير قليل من الباحثين المتخصّصين، لا نكاد نعلم شيئا عن أهميّتها التّأريخيّة كواحدة من مصادر تاريخ الحجاز خلال الفترة التّاريخيّة المشار إليها. فمن هو ابن الصبّاح الأندلسي؟ وماذا عن رحلته؟ ثمّ كيف بدت ملامح الصّورة التّاريخيّة لبلاد الحجاز في ضوء ما أورده عنها هذا الرحّالة؟ .

اولا – ابن الصبّاح ورحلته:

ابن الصبّاح مؤلّف هذه الرّحلة هو الحاج عبد اللّه بن الصبّاح الأصبحي المنتسب إلى قبيلة الصبّاحين الحميريّة إحدى قبائل اليمن، التي استقرّت بالجزء الشّرقي من الأندلس منذ نهاية القرن الأوّل الهجري/ السّابع الميلادي وظلّت تقيم بهذه النّواحي إلى حدود سنة ١١١٨هـ/ ١٧٠٦م تاريخ صدور مرسوم الطّرد النّهائي للمسلمين من إسبانيا[٥] . أمّا حياة هذا الرحّالة فإنّنا لا نكاد نعلم عنها شيئا لأنّ الرّجل لم يكن من مشاهير النّاس حتّى تحفل به كتب السّير والتّراجم وكلّ ما وصلنا عنه مقتبس ممّا ورد في ثنايا رحلته من نتف والتي يفهم منها أنّه من مسلمي شرق

الأندلس المدجّنين، الذين أصبح كثير منهم منذ منتصف القرن السّابع الهجري/ الثّالث عشر الميلادي يعيشون تحت النّفوذ النصراني[٦]. لكنّنا لا نعلم بالتّحديد في أيّ مدينة من مدن الأندلس كان هذا الرحّالة قد عاش وإن كان المحقّق الأوّل لهذه الرّحلة الباحث المغربي د. محمّد بنشريفة قد رجّح نسبته إلى مدينة شاطبة وحجّته في ذلك أنّ ابن الصبّاح ذكر أنّه اشترى جبّة من هذه المدينة وأنّه كان يتكلّم اللّغة القطلانيّة وهو رأي يبقى في حاجة إلى تأكيد إذ لا يكفي أن يكون هذا الرحّالة ممّن أتقنوا اللّغة القطلانيّة وذكر أنّه اشترى جبّة من مدينة شاطبة لننسبه إلى هذه المدينة[٧]. كما كان الباحث التّونسي جمعة شيخة هو الآخر قد سبق له أن نسب هذا الرحّالة إلى مدينة المريّة[٨] قبل أن يتدارك ذلك أثناء تحقيقه للرّحلة ويكتفي بنسبته إلى شرق الأندلس عامّة [٩]. ويرجّح الباحث بنشريفة أن يكون ابن الصبّاح قد قضّى بقيّة حياته في مدينة وهران بالمغرب الأوسط بعد عودته من رحلته وهو رأي لا يؤيّده فيه د. جمعة شيخة لأنّ إقامة هذا الرحّالة بمدينة وهران، كما أشار إلى ذلك في رحلته، كانت بداعي المرض ولم تتجاوز مدّتها السّنتين وكانت وهو في طريق الذّهاب لا العودة [١٠].

وكان ابن الصبّاح ينعت بـ"الحاج" وهو لقب كان شائعا بين أهل المغرب والأندلس على امتداد العصور الإسلاميّة المختلفة لأنّ الحجّ إلى الحجاز وما يتطلّبه ذلك من عناء قطع المسافات الطّويلة وتجشّم الصّعاب ومخاطر الطّريق من أجل زيارة الحرمين الشّريفين يعدّ مهمّة جسيمة وتحدّ كبير يستحقّ الإشادة والتّنويه حتّى أنّ كثيرا من العائلات والأسر المغربيّة والأندلسيّة أصبحت تزهد في ألقابها الأصليّة، التي تنسبها إلى حيّز جغرافيّ أو مهنة أو صفة، وتميل في المقابل إلى الاكتفاء بلقب "ابن الحاج"[١١]. وبالتمعّن في اللّغة والأسلوب المتعثّرين، اللّذين كتب بهما ابن الصبّاح رحلته ندرك أنّ الرّجل كانت ثقافته متواضعة وإمكانيّاته العلميّة محدودة لأنّه كما يشير هو إلى ذلك في رحلته، لم يجد في موطنه شرق الأندلس الواقع آنذاك تحت النّفوذ النّصراني من الشّيوخ والعلماء من يقدّم له تعليما رفيعا فضلا عن غياب الكتب والمصنّفات، التي تساعده على تعميق معارفه وصقلها [١٢] .

وقد شكّل رسم عنوان رحلة ابن الصبّاح موضع خلاف بين الباحثين، ففي أطروحته الموسومة بـ"مظاهر الحضارة من خلال رحلات المغاربة والأندلسيّين من القرن ٦-١٢هـ/ ١٢-١٨م" اختار لها مكتشفها الباحث التّونسي أحمد الشّتيوي عنوان "منشاب الأخبار وتذكرة الأخيار"(١٣) في حين عرّفها محقّقها الأوّل الباحث المغربي محمّد بنشريفة تارة بـ"أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار" وتارة بـ"أنساب الأخيار وتذكرة الأخبار" (١٤) ، أمّا المحقّق الثّاني لهذه الرّحلة الباحث التّونسي د. جمعة شيخة فقد وسمها في طور أوّل بعنوان "منشاب الأخبار وتذكرة الأخيار" وفي طور ثان بعنوان "نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار"(١٥) . ومهما يكن الرّسم، الذي أراده ابن الصبّاح لعنوان رحلته من بين الرّسوم المشار إليها، فإنّ هدفه الأساسيّ من تأليفها هو أن تكون "عبارا وإخبارا أيّ عبرة وإخبارا لإخوانه من المدجّنين أمثاله الذين بقوا مثله في الأندلس بعد سقوطها بيد الإسبان"(١٦). وكان ابن الصبّاح قد انكبّ على تدوين رحلته، خلال النّصف الأوّل من القرن التّاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، بعد عودته إلى موطنه الأندلس وهو بين الستّين والسّبعين من العمر يكابد ضعف البصر وكثرة العيال(١٧). وقد وصلنا نصّ هذه الرّحلة عن نسخة كتبت بعد وفاة مؤلّفها ابن الصبّاح وبعد حدث سقوط غرناطة، كما يؤشّر على ذلك ما ورد من إضافة النّاسخ إلى النصّ الأصلي حين دعا لهذه المدينة بالعودة إلى دار الإسلام (١٨).

ومن خلال ما أورده هذا الرحّالة عن نفسه، يستنتج أنّه انطلق في رحلته خلال النّصف الثّاني من القرن الثّامن الهجري/ الرّابع عشر الميلادي وهو في مقتبل العمر وكان غرضه من هذه الرّحلة أداء مناسك الحجّ، مستعينا في ذلك بـ"دراهم حلال من ميراث الأبوين المرحومين" (١٩)، وقد استغرقت هذه الرّحلة مدّة طويلة لا تقلّ عن العقدين من الزّمن (٢٠). وممّا يؤكّد الإحداثيّات الزّمنيّة المعروضة آنفا تلك الإشارات، التي أوردها ابن الصبّاح في رحلته ومن أبرزها ذكره لبعض الشّخصيّات السّياسيّة والعلميّة، التي كانت على قيد الحياة زمن مروره ببلدانهم شأن أبي زيّان الثّاني محمّد بن موسى حاكم تلمسان فيما بين سنتي٧٩٧-٨٠٢هـ/١٣٩٤-١٣٩٩م والقاضي سعيد العقباني مفتي تلمسان المتوفّى سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م وأمير مكّة الشّريف أحمد

بن عجلان، الذي حكم بين سنتي٧٧٤-٧٨٨هـ/ ١٣٧٢-١٣٨٦م، والسّلطان التّركي مراد الأوّل بن أورخان بن عثمان، الذي حكم بين سنتي ٧٦١-٧٩٢هـ ١٣٥٩-١٣٨٩م [٢١].

وقد بدأ ابن الصبّاح مسار رحلته انطلاقا من موطنه الأندلس، مرورا بمدينة غرناطة حاضرة بني الأحمر، التي أشاد بما كانت تنعم به من حضارة وازدهار في وصف لا يخلو أحيانا من مبالغة كقوله "إنّ من جملة ما فيها من الأجنّة ألف ألف جنّة يكون فيها ألف ألف قصر" [٢٢]، منوّها في هذا المنحى إلى ما كانت تعيشه هذه المدينة خلال ذلك العهد من حركيّة علميّة وثقافيّة لافتة [٢٣]. ثمّ انتقل ابن الصبّاح إلى العدوة الإفريقيّة عبر بحر الزّقاق في اتّجاه مدينة سبتة، التي أسهب في مدحها ومدح أهلها أصحاب الجود والكرم قبل أن ينطلق في جولة في ما حولها من قرى وحصون[٢٤]. ومن سبتة اتّجه ابن الصبّاح نحو مدينة مرّاكش، التي ذكر أنّه وجدها خلاء وخرابا رغم أنّها كانت في عهد الخلفاء الموحّدين تشبه مدينة بغداد في الحضارة والعمران[٢٥]، ليتّجه بعد ذلك صوب مدينة فاس ويسهب في الحديث عن تاريخها وعن مظاهر الازدهار والرّخاء، التي كانت تعيشها في زمنه[٢٦].

ومن المغرب الأقصى تحوّل الرحّالة الأندلسي إلى المغرب الأوسط وبالتّحديد إلى تلمسان حاضرة بني عبد الواد، فتحدّث عن مشاهيرها من الملوك والصّلحاء[٢٧] ، ثمّ أشار إلى كثرة علمائها وخضرتها وطيبة مائها وهوائها[٢٨]، لينتقل بعد ذلك إلى مدينة وهران، التي أشاد بوفرة خيراتها وطيبة أخلاق أهلها، الذين أحسنوا إليه وأطعموه وهو طريح فراش المرض بينهم طيلة سنتين[٢٩]. وما أن شفي ابن الصبّاح من مرضه واستعاد عافيته حتّى ترك مدينة وهران في اتّجاه مدينة الجزائر، التي وصفها بأنّها مدينة تجارة وخصب ورخاء[٣٠]. ثمّ تابع الرّحّالة الأندلسي رحلته شرقا، قاصدا إقليم إفريقيّة الواقع آنذاك تحت حكم الحفصيّين، فدخل حاضرته مدينة تونس في فصل الصّيف وأقام بها ثلاثين يوما، واصفا إيّاها بأنّها "رأس مدائن المغرب" [٣١]، ثمّ تحدّث عن المدن التّابعة لها مثل بجاية وقسنطينة وعنّابة أو بلد العنّاب وباجة والقيروان وقفصة وغيرها من مدن جنوب إفريقيّة[٣٢]. ويشير ابن الصبّاح إلى أنّه استأنف رحلته

بحرا انطلاقا من مدينة تونس، قاصدا مدينة الإسكندريّة "في مركب من ثلاثة أظهر... فيها ألف نفس بين حجّاج وتجّار وبحريّين وعبيد السّودان"(٣٣)، ثمّ ما لبث أن ذكر في موضع آخر أنّه وصل مدينة طرابلس برّا، واصفا إيّاها بمدينة الجوع والطّريق بينها وبين الإسكندريّة خلاء "لا جدار فيه... كلّها نجوع عرب"(٣٤). وهاتان الإشارتان المتباعدتان من حيث المضمون تطرحان إشكالا بخصوص المسار الحقيقيّ، الذي سلكه هذا الرحّالة انطلاقا من مدينة تونس، هل كان برّا في اتّجاه مدينة طرابلس أم بحرا نحو مدينة الإسكندريّة؟ وهل أنّ الوصف، الذي أورده ابن الصبّاح عن الطّريق البرّي الواصل بين طرابلس والإسكندريّة هو وصف سماع أو وصف عيان؟ وهل أنّ الإشارتين المشار إليهما كافيتان للاعتقاد أنّ الرحّالة الأندلسي قد سافر أكثر من مرّة في اتّجاه الشّرق وسلك مختلف الطّرق البريّة والبحريّة؟ (٣٥)

ثمّ ينتقل ابن الصبّاح إلى الحديث عن البلاد المصريّة، فيصف مدينة الإسكندريّة بأنّها "داخلة في البحر كأنّها جزيرة وبساتينها محدقة بالبحر... مدينة بيضاء والأسوار فيها عالية"(٣٦)، أمّا مدينة القاهرة أو "مدينة مصر" كما يسمّيها فقد أسهب في الحديث عن نيلها وحركته الملاحيّة النّشيطة، مبديا اهتماما كبيرا بمختلف أشكال الحياة اليوميّة في المدينة، واصفا بكثير من الإعجاب والانبهار عمرانها وآثارها وخاصّة منها المساجد والمدارس، التي حضر فيها دروس بعض العلماء شأن العالم محمّد البلقيني مفتي الدّيار المصريّة خلال ذلك العهد(٣٧). واستعدادا لمواصلة الطّريق نحو مكّة من أجل أداء مناسك الحجّ اكترى ابن الصبّاح ناقة وصاحبها ليوصله إلى البلد الحرام رفقة الرّكب أو المحمل المصري، سالكا طريق البرّ المارّ عبر منفذ العقبة(٣٨)، ليتابع رحلته بعد حديث مطوّل عن بلاد الحجاز واليمن ويتّجه شمالا صوب بلاد الشّام(٣٩)، مرورا بمدينة الخليل والحرم الإبراهيمي(٤٠)، فبيت المقدس التي جاور بها طيلة أربع سنوات[٤١]، ثمّ مدينة دمشق التي فتن بها وأسهب في الحديث عنها وعن تاريخها(٤٢). ومن حاضرة بلاد الشّام اتّجه ابن الصبّاح شرقا قاصدا ديار بكر الرّاجعة بالنّظر خلال ذلك العهد إلى مدينة بغداد، واصفا إيّاها بالخصب والرّخاء(٤٣)، ليتّجه بعد ذلك صوب بلاد التّرك ويقيم فيها مدّة أربع

سنوات[٤٤] زار خلالها عاصمة البلاد القسطنطينيّة ووصفها بـ"العظمى" وبأنّها كانت "مدينة للتّجارة كبيرة" [٤٥] . ومن بلاد التّرك ينتقل ابن الصبّاح إلى بلاد فارس ، التي يصفها بأنّها "بلاد زمهرير بالشّتاء وعرة للسّكنى وأمّا في الصّيف طيّبة الهواء" [٤٦].

وينهي الرحّالة الأندلسي رحلته الطّويلة بالحديث عن بلاد العراق، فتحدّث عن حاضرتها بغداد ووصفها بأنّها "مدينة شامخة قليلة المطر يسقون من الزّيادة من ماء دجلة... فيها ألفا مسجد وخمس وعشرون خطبة للجمعة وخمس وعشرون مدرسة للعلم والدّرس للعلماء والقرّاء... قيساريّاتها لا تكون في جميع الأرض يمشي الفارس بمزراقه واقفا من كثرة علوّها وفيها أسواق وبيع وشراء وأخذ وعطاء... مدينة بغداد خير البلاد وسكّانها خير العباد"[٤٧]. ويذكر ابن الصبّاح أنّه دخل "مدينة بغداد أوّل ليلة من رمضان المعظّم" وأنّه جاور بها وبأحوازها طيلة ثلاث سنوات وشبّه مجاورته بها كمن "جاور في الجنّة" [٤٨]، كما أشار إلى إقامته بالمدرسة المستنصريّة وأشاد بالدّور الرّيادي، الذي كانت تلعبه هذه المؤسّسة في الحياة العلميّة والفكريّة بالعراق خلال ذلك العهد[٤٩]، منوّها في الأثناء إلى طيبة أخلاق أهل بغداد وعاداتهم الحميدة في إطعام الغرباء والإحسان إليهم[٥٠].

ثمّ يحدّثنا ابن الصبّاح عن واسط الواقعة شرقيّ بغداد وهي على حدّ وصفه "مدينة كثيرة النّخل والعمارة" [٥١] ، لينتقل بعد ذلك إلى الكلام عن مدينة البصرة، التي قال فيها:"مدينة البصرة نخلها وحرثها وقراها وعمارتها مسيرة عشرة أيّام تسقى من فيض الفرات وماء دجلة... جنّة في الأرض لا تحتاج إلى أيّ مصر وهي أحسن من مصر لأنّ مصر فيضها من عام إلى عام، وفيض البصرة كلّ يوم إلى يوم القيامة، يسقي زرعا ونخلا وحرثا مسيرة عشرة أيّام... وإلى مدينة البصرة تأتي مراكب البهارات من ملك الهند ثمّ تسافر إلى جميع البلاد...فيها مشائخ للعلم ومشائخ النّجوم وعلم العربيّة والتّصريف والعجيب... بنيانها حجر المرمر، إذا رقد الرّجل عليه في زمان الصّيف يقوم بالوجع من شدّة برده" [٥٢] .

ثانيا – المشاهدات الجغرافيّة والعمرانيّة:

١- وصف الطّرق والمسالك:

نال وصف الطّرق والمسالك الحظّ الأوفر من المشاهدات الجغرافيّة، التي أوردها ابن الصبّاح في رحلته عن بلاد الحجاز شأنه في ذلك شأن كثير من الرحّالة المسلمين(٥٣)، الذين سبقوه إلى هذه المنطقة أو الذين أتوا من بعده، مختصرا تارة ومسهبا تارة أخرى في الحديث عمّا يعترض سبيله من مشاهد طبيعيّة وعمرانيّة مختلفة على امتداد المراحل، التي قطعها والمحطّات التي نزلها.

أ-الطّريق من العقبة إلى مكّة:

يعرف هذا الدّرب بالطّريق السّاحلي ويبدأ من العقبة، ثمّ يتّجه جنوبا محاذيا ساحل بحر القلزم أو البحر الأحمر ويسلكه في الغالب المسافرون القادمون برّا من مصر وما وراءها من بلاد المغرب والأندلس، ليلتقي بالطّريق الدّاخلي في بدر حيث يجتمع الرّكب المصري بالرّكب الشّامي ويسيران سويّا في اتّجاه مكّة (٥٤). ومن الرحّالة، الذين سلكوا الطّريق السّاحلي قبل ابن الصبّاح، الرحّالة المغربي أبو عبد اللّه محمّد العبدري، الذي زار بلاد الحجاز خلال سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م وقام بتعداد منازل هذا الطّريق ومحطّاته (٥٥). وعلى نهج العبدري سار ابن الصبّاح في الحديث عن هذا الطّريق، الذي نعته بطريق الموت(٥٦) وهاله ما وقعت عليه عيناه على طول هذا الدّرب من مشاهد طبيعيّة صعبة ومن فيافي وبراري وهو على ظهر راحلته المكتراة من مصر بأربعة دنانير ذهبا، يسير الهوينا عبر جبال الحجاز الشاقّة، التي وصفها بـ"العلوّ والسّواد والوعر والحجارة، والعطش والخلاء، بلا عمارة ولا طير ولا حسّ ولا حسيس، ولا إنس ولا أنيس ولا خضرة ولا مرعى... مهالك وأيّ مهالك ما رأتها العيون ولا وصفها الواصفون. وكلّ سفر يهون إلاّ سفر بريّة الحجاز فلا يهون. ومن قال: إنّه لم يعي فيها مرّة راكبا أو ماشيا فإنّه يكذب، بل يعيا الرّاكب والماشي" (٥٧).

ويضيف ابن الصبّاح متحدّثا عن هذا الطّريق الصّعب ويذكر بأنّه يقع "في واد بين جبال سود عالية مع السّحاب، حجارة سود بلا حجر ولا خضرة، والشّجر الذي فيها بلا ورق من شدّة الحرّ. جبال مكّة والحجاز مسيرة شهرين وهي مثل الحريق،

تقول الدّخان جرى عليها والنّار. بلاد حارّة الشّتاء والصّيف كلّه سواء"[٥٨]. ثمّ يحدّثنا ابن الصبّاح عن مختلف المراحل أو المحطّات، التي نزلها وهو في طريقه إلى البلد الحرام، بدءا بأرض عجرود المنعوتة بأرض العطش لمرارة مائها الشّديدة، كما يشير إلى ذلك الرحّالة الأندلسي بقوله:"فيها ماء أمرّ من الصّبر لا ينشرب ولكنّ بشدّة العطش يشرب الرّجل بوله وبول الجمل لو أصاب"[٥٩]. وبعد مغادرته أرض عجرود ينزل ابن الصبّاح بوادي القباب، الذي في رمله تغيب الجمال ويتيه الرّجال عن السّبيل لولا الأدلاّء، الذين كانوا "يمشون أمام الرّكايب بالعلامات يقفون على الكدى العالية حول الطّريق"[٦٠]. ثمّ ينتقل ابن الصبّاح إلى أرض مدين أو مدائن صالح المجاورة لتبوك[٦١]، فمغارة النّبي شعيب[٦٢]، التي زارها قبله العبدري ووصفها بالكبر والارتفاع، ذاكرا أنّها تتكوّن من الحجر الصّلد وتتميّز بغزارة مائها، مقدّرا امتدادها من الباب إلى القعر بستّين أو سبعين ذراعا[٦٣].

ويتابع ابن الصبّاح سيره جنوبا، مرورا بتيه بني إسرائيل[٦٤]، فالأزلام[٦٥]، فوادي عنتر[٦٦]، فالمويلح المعطشة أعظم العطش[٦٧]، فالحوراء ذات الماء البارد الحلو [٦٨]، ثمّ منها إلى عيون القصب ذات الماء العذب[٦٩]، ليصل بعد ذلك إلى بلدة ينبع الواقعة على ساحل بحر القلزم ويقيم فيها أربعة أيّام من أجل تجديد زاده[٧٠]، شأنه في ذلك شأن من سبقه من الرحّالة، الذين سلكوا هذا الطّريق وأشاروا في مدوّناتهم إلى هذه البلدة كإحدى المحطّات الهامّة بالنّسبة إلى جموع الحجيج وخاصّة منها سوقها الكبير[٧١]. ومن ينبع انتقل ابن الصبّاح نحو بدر حيث أقام يوما واحدا [٧٢]، ثمّ تركها في اتّجاه البزورة، التي وصفها بأنّها "مهلكة رمل تغيب الجمال في رملها ثلاثة أيّام ينزل الجمل في الرّمل إلى ركبته" [٧٣] ، منسجما في ذلك وما أورده كلّ من ابن جبير والعبدري وابن بطّوطة، الذين اتّفقوا جميعهم على نعت هذه المنطقة بأنّها صحراء واسعة مجهولة المسالك والمعالم[٧٤]. وبعد المرور بخليص أحد أسواق العرب، خلال ذلك العهد، يصل ابن الصبّاح إلى رابغ الجحفة ميقات إحرام الحجيج القادمين من مصر وبلاد المغرب[٧٥]، ثمّ منها إلى بطن مرّ أو مرّ الظّهران وهو آخر محطّة ينزلها هذا الرحّالة قبل أن يحطّ الرّحال بمكّة [٧٦] .

ب- الطّريق من مكّة إلى المدينة:

يقدّر ابن الصبّاح طول هذا الطّريق بمسير ثمانية عشر يوما[٧٧] ، ثّم يعدّد مراحله التّسعة، التي قطعها بدءا ببطن مرّ[٧٨]، فمدارج علي[٧٩]، فخليص[٨٠]، فالبزرة[٨١]، فبدر ومنها إلى وادي الصّفراء وهو عبارة عن مجموعة من القرى المتّصل بعضها ببعض لمسافة يوم [٨٢]، ليتّجه بعد ذلك نحو وادي الغزالة، فوادي العقيق، وصولا إلى ذي الحليفة ميقات إحرام أهل المدينة والمعروف أيضا باسم آبار علي ومنها إلى قبا، فمنزلة المصري باب المدينة [٨٣] .

ج- الطّريق من المدينة إلى بلاد الشّام:

يذكر ابن الصبّاح أنّه خرج من المدينة عبر الباب الشّامي قاصدا بلاد الشّام، فكانت تبوك أولى المحطّات التي نزلها دون أن يزوّدنا بشيء يذكر عن هذه المحطّة الهامّة الواقعة في بداية طريق الحجّ الشّامي وهو ما يجعلنا نميل إلى الاعتقاد أنّ تبوك ظلّت خربة منذ أن وصفها بذلك الرحّالة البلوي حين زارها خلال النّصف الأوّل من القرن الثّامن الهجري/ الرّابع عشر الميلادي[٨٤]. ومن تبوك تابع ابن الصبّاح رحلته شمالا ليصل بعد مسير ثمانية أيّام المعلّى أو العلا عبر طريق شاقّ ومرير يصوّره لنا بقوله:"لمّا كنّا بين تبوك والمعلّى جرت علينا ريح عاصفة زمهرير مات منّا أناس كثيرون من الفقراء العراة ممّن يبّستهم الرّيح الباردة: زمهرير يحرق من شدّة البرد كما يحرق لهيب النّار وأضحت وجوه الخيل مسودّة مثل الدّخان" [٨٥]. وبعد مسير نصف يوم تقريبا يصل ابن الصبّاح إلى مدائن صالح أو مدائن ثمود ويذكر أنّ بها "بئر النّاقة ماؤه عذب لأصحاب الحجلا وفيها نخيل إلى بريّة عقبة السّودان، إلى معان وهو أوّل الحشر إلى الشّام من المدينة إلى أوّل عمارة الشّام مسيرة خمسة عشر يوما بلياليها" [٨٦]. كما أشار البلوي من جهته إلى هذه البئر وسمّى موضعها مبرك النّاقة [٨٧]، أمّا ابن بطّوطة فقد سمّاها بئر الحجر وأشار إلى كثرة مائها "ولكنّ يمتنع الرّكب عن تناوله مع شدّة عطشهم اقتداء بالرّسول(ص)".[٨٨]

٢- وصف المدن والعمران:

مثّلت مكّة أولى حواضر الحجاز الثّلاثة، التي دخلها ابن الصبّاح وأسهب في الحديث عنها وعن معالمها وخاصّة الدّينيّة منها. وحديث ابن الصبّاح عن البلد الحرام لا يختلف كثيرا عمّا أورده غيره من الرحّالة المسلمين، الذين غالبا ما يصدّرون كلامهم عن مكّة على كونها بلدة واقعة في وادي غير ذي زرع ومع ذلك فقد استجاب اللّه لدعوة نبيّه إبراهيم، لتصبح أمّ القرى بفضل ذلك أرضا عامرة يأتيها الرّزق والثّمرات من كلّ صوب وحدب[٨٩]. ويشير ابن الصبّاح إلى أنّه دخل مكّة من باب بني شيبة وطاف طواف القدوم، ثمّ انصرف إلى الحديث عن الكعبة فقدّر أساسها بخمسة عشر قدما ومحيطها بـ"مائة خطوة من خطوات الرّجال المتوسّطة في الطّول" [٩٠]، أمّا ارتفاعها من الخارج فقدّره بثمانية عشر ذراعا وهذا غلط نرجّح أنّه ناجم عن خطأ في النّسخ ذلك أنّ القياس الأكثر تداولا يتراوح بين سبع وعشرين ذراعا من جهة الرّكنين الشّاميّين وثلاثين ذراعا من جهة الرّكنين اليمانيّين بسبب ميل السّطح إلى جهة الميزاب [٩١]. ويذكر ابن الصبّاح أنّ الكعبة "محلاّة بحلّة حرير أكحل اللّون كدجى الظّلام، عليها أربع آيات مطرّزة مكتوبة في الوجوه الأربعة في خرقة من الحرير الأبيض حروفا مقطّعة بخطّ مشرقي يقرؤه جميع الأنام: الأولى على وجه الباب المبارك قوله تعالى:إنّ أوّل بيت وضع للنّاس للذّي ببكّة مباركا وهدى للعالمين" والوجه الثّاني قوله تعالى: "وللّه على النّاس حجّ البيت ومن دخله كان آمنا" وعلى الوجه الرّابع كتب اسم سلطان ذلك الزّمان والعام الذي كساها فيه" [٩٢].

ويتابع ابن الصبّاح حديثه عن الكعبة بقوله:"وصفنا ظاهر البيت الشّريف والآن وجب علينا أن نصف باطنه وهو باطن البيت الشّريف، ارتفعت قاعدته من الأرض قدر طول الرّجل، يطلع عليها بسبعة دروج من ألواح تنقل وتردّ. وباب الكعبة الشّريفة شرقيّ متوسّط فيما بين مطلع الشّمس في الشّتاء والصّيف، بابها من عود البابنوز(الأبنوس) ملبّس بالنّحاس الصّيني، مذهّب بماء الذّهب، مغلق سائر الأيّام إلاّ يوم الجمعة المباركة يفتحه بنو شيبة خدّام البيت الحرام، يدخله الرّجال يركعون فيه للبركة والثّواب. وداخله مفروش بالمرمر الملوّن، والحيطان بأنواع البلاط، وألوان

المرمر، عليها من داخل البيت حلّة حمراء مرصّعة بالحرير الأحمر ومرصّعة بالذّهب الملوّن، وفيها أنواع من الذّهب على صورة سنبلة الصّنوبر، وسقفها باللّوح والمسمار، والسّطح المبارك بجصّ الجير والرّمل المخمّر. وفي السّطح أربعة مضاو مثل مضاوي الحمّام قدر كلّ واحد الآفل الأكبر تعمل ضوءا للبيت مثل النّهار، وحبال أستار الكعبة موثقة في رأس الحائط بالخشبة والحبال تحبسها من أقلّ الرّيح والانتقال"(٩٣) .

ومن جوف الكعبة انتقل ابن الصبّاح إلى سطحها، فوصفه أنّه من "عود، ملبّس بالنّحاس الصّيني، مذهّب بماء الذّهب الأحمر يقطر في مرمرة خضراء في حجر إسماعيل" (٩٤)، أمّا الميزاب فقدّر طوله بحوالي ذراع وسمّاه ميزاب الرّحمة (٩٥). ثمّ يصف لنا ابن الصبّاح الحجر الأسود بقوله:"شاهدت في وسطه قدر الدّرهم من البياض، وهو مطوّق بطوق من فضّة بيضاء طوّقه بها عبد اللّه بن الزبيّر، فهو اليوم يضيء ليلة الظّلمة مثل نجمة الزّهرة من كثرة الالتماس بأيدي الخلق وكثرة الامتحان فيه بالمسّ باليد والفم" (٩٦). أو قوله أيضا:"وكفى بها الحجر الأسود من الجنّة، بني في ركنها الأيمن بقدر العلوّ مبنيّ في الرّكن، علوّ منكب الرّجل، يلحقه الطّويل بالتّمثيل(هكذا)، والقصير بالإمكان، عليه الزّحام ما دامت الأوقات من ليل أو نهار. لا يفتر إلى يوم القيامة لأنّه مثيل البيت المعمور" (٩٧). وفي تقدير ابن الصبّاح الكعبة هي مركز الأرض والكون وفيها يقول بأسلوب لا يخلو من مسحة أسطوريّة :"لأنّ الأرض المعمورة من بني آدم كورة، والبيت الحرام بالكعبة في رأس الكورة، والشّمس لا تفارق البيت... والكعبة من إقليم واحد وسط الأرض وأعلاها بدليل قول عائشة: لم أر في القمر أضوأ ممّا رأيته بمكّة، ورأيت الفلك أقرب بمكّة، وعليه استوى في الفلك والشّمس بدليل" (٩٨). أو قوله فيها أيضا:" جاورت مدينة مكّة والكعبة الشّريفة بيت اللّه، الذي قامت عليه السّماوات والأرض، وضعه على وجه الماء قبل الأرض، وبعد ذلك من تحته دحيت الأرض، ومن تحته خلق اللّه التّربة التي خلق آدم منها. ومن تلك التّربة خلق اللّه جميع ألوان التّراب. وعلى هذا البيت الشّريف دوران الفلك

والشّمس والقمر والنّجوم والبروج والمزيّنات التي تسير فيها الشّمس. وهي قبّة الأرض وعجائبها لا تنحصر، ولكنّ ذكرنا بالاختصار" [٩٩].

أمّا المسجد الحرام فيقدّر ابن الصبّاح طوله بأربعمائة خطوة، تتخلّله أربعمائة عمود رخام مزيّنة بماء الذّهب، وعرضه ثلاثمائة خطوة وثلاثمائة سارية من رخام[١٠٠]، متّفقا في ذلك مع ما أورده قبله الرّحالة ابن جبير[١٠١]. ويتّفق ابن الصبّاح مع العبدري في ضبط عدد أبواب المسجد الحرام، التي قدّرها بتسع وثلاثين بابا [١٠٢] أبرزها باب بني شيبة، باب حزورة من حيث أسري الرّسول(ص)، باب إبراهيم، باب العمرة، باب العجم، باب السّويقة، باب اليمن..."وأبواب أخرى مفتّحة في هذه، داخلة في العدد، في البعض منها خمسة وأكثر"[١٠٣]. وتحيط بالحرم طاقات أو سقائف "وهي خزائن مصنوعة باللّوح والمسمار وماء الذّهب وأنواع المرمر والرّخام ممّا بناه الأمير عمر بن الخطّاب... كأنّه القصر العظيم يسع أهل مشارق الأرض ومغاربها من أمّة محمّد قبل المحشر" [١٠٤].

ويستعرض ابن الصبّاح المشاعر والمواضع المقدّسة الموجودة بالبلد الحرام، التي يسمّيها بالمناسك وعددها ستّة عشر منسكا وفي ذلك يقول:" في مكّة مناسك الحجّ ما ليس في غيره، جبل عرفة والمزدلفة والمشعر الحرام وجمرات منى، والكعبة والحجر الأسود والرّكن اليماني والملتزم وحجر إسماعيل ومقام إبراهيم وبئر زمزم والصّفا والمروة والمشعر. وعمرة الأكمة ويحرم إليها من الحلّ خارج الحرم من المكان المعروف بمسجد عائشة أمّ المؤمنين. هذه ستّة عشر منسكا عدّتها جميع البلاد متميّزة بالفضل والجزاء"[١٠٥]. ثمّ يحدّثنا ابن الصبّاح عن أبرز المزارات والمقامات المقدّسة بمكّة بدءا بمزار جبل حرى وهو الموضع، الذي شقّ فيه صدر الرّسول محمّد(ص) ومسجد البيعة بيعة الصّحابة العشرة المبشّرين بالجنّة وقبر خديجة بنت خويلد زوجة الرّسول(ص)[١٠٦]. ثمّ يشير ابن الصبّاح إلى غار جبل ثور وهو عبارة عن شقّ منحوت في الحجر الأصمّ يناهز الشّبر أو أقلّ كان الرّسول(ص) وأبو بكر قد استترا فيه عن عيون قريش[١٠٧].

وعلى خطى مواطنه ابن جبير يتوقّف ابن الصبّاح عند جبل أبي قبيس حيث يوجد الموضع، الذي "أمر الجان أن يسيروا إليه ليقرأ عليهم القرآن فقرأ عليهم الرّسول(ص)"[١٠٨] وموضعه بالجهة الشّرقيّة من الحرم مقابل ركن الحجر الأسود[١٠٩]. كما يشير ابن الصبّاح إلى مزار ينسب إلى مسلمة بن الزبيّر وإلى قبر عبد اللّه بن عمر الواقعين عند باب المعلى[١١٠]، ثمّ يحدّثنا عن مزار مولد النّبي ودار خديجة وخلوة أبي بكر الصدّيق، التي كان ينزوي فيها عند ظهور الإسلام، ودار الخيزران موضع ابتداء الإسلام وإيمان عمر بن الخطّاب، وبيت حزّورة التي أسري منها بالنّبي محمّد(ص) إلى المسجد الأقصى[١١١]. ويضيف ابن الصبّاح قوله:"جاورنا هذه المقامات الكرام ووقفنا عليها وشهدتها وجاورنا ها بعناية اللّه تعالى ومن كرمه للّه الحمد. جاورناها بدراهم حلال من ميراث الأبوين المرحومين، جاورنا سنة متوالية ووقفنا وقفتين على عرفة واعتمرنا إحدى عشر عمرة" [١١٢].

ومن الأمور الطّريفة والنّادرة، التي أتاها ابن الصبّاح في سياق حديثه عن البلد الحرام وضعه لرسمين توضيحيّين الأوّل عن الحرم المكّي والثّاني عن المشاعر المقدّسة [١١٣]. ويعتبر محقّق الرّحلة د. جمعة شيخة هذه الرّسوم جزأ لا يتجزّأ من النصّ، فهي في نظره أداة توضيحيّة وضعها المؤلّف من أجل إخوانه المدجّنين ممّن لا يستطيعون القيام بفريضة الحجّ، فهم لئن عجزوا عن رؤية هذه الأماكن المقدّسة في دنيا الواقع يرونها على الأقلّ في شكل رسوم [١١٤].

وبعد حديث مطوّل عن مكّة يمرّ ابن الصبّاح سريعا على مدينة الطّائف[١١٥]، مكتفيا بالإشارة إلى قبر الصّحابي عبد اللّه بن عبّاس، ذاكرا أنّ عليه مقاما عظيما ومزارا جسيما "تعظّمه جميع عربان الحجاز كلّها أفضل التّعظيم"[١١٦]. ومن الطّائف يحطّ الرحّالة الأندلسي الرّحال بمدينة يثرب أو مدينة الرّسول(ص)، التي يستهلّ الحديث عنها بإيراد بسطة تاريخيّة عن زمن وظروف تأسيسها على يد التبّع اليمني حسّان بن أسعد أبي كرب الحميري، سائرا في ذلك على نهج أهل الأخبار الأول المتشبّعين بثقافة الأساطير والإسرائيليّات وفي ذلك يقول:"وأوّل من تبوّأ الدّار حسّان بن أسعد أبي كرب التبّعي الحميري وهو أوّل من بنى مدينة يثرب وأوّل من تبوّأ

الإيمان من العرب الأربعمائة الذين جاؤوا معه من بلاد اليمن... فأمر ببناء أربعمائة بيت على عدد الحكماء، وأمر أن يؤتى بالنّخل للغرس من اليمن فغرست، وأمر بالآبار ففتحت والحرث فحرثت والسّقي فسقيت، وأجرى عليهم النّفقة من اليمن حتّى أطعمت النّخل وعمّت... ثمّ كتب كتابا فيه تاريخ فعله وأرّخ قصّته... والتّاريخ الذي كتبه موجود في صحيفة من نحاس بسبب ما يتوقّعه من طول الزّمان، لئلاّ يبلى الخطّ الحميري ولا يندرس... ثمّ استودع السّعدي التّاريخ والأبيات عند جدّ أبي أيّوب الأنصاري وودّع ورحل إلى اليمن... فقام أبو أيّوب الأنصاري إلى خزائن أبويه واستخرج الصّحيفة من ذخائر أبويه، وإذا هي تفوح مسكا مكتوبة بخطّ حميري، وإذا تاريخها ألف عام قبل الهجرة" (١١٧) .

ويتابع ابن الصبّاح كلامه عن المدينة واصفا إيّاها بأنّها تقع "بين جبلين جبل أحد وجبل رومة الحمراء، التي تلي مسجد القبلتين وبين بئر عثمان وعرض ما بين الجبلين مسيرة يوم. ومدينة يثرب في دورة سورها وحفيرها دورة ضحوة من النّهار..."(١١٨). ثمّ ينتقل ابن الصبّاح إلى الحديث عن معالم المدينة ومقاماتها المقدّسة بدءا بالحجرة النّبويّة، التي يصفها بأنّها "حجرة عظيمة وشريفة ومقام عظيم... وهي بيت عائشة أمّ المؤمنين" (١١٩). أمّا القبّة، التي تعلو قبر الرّسول(ص)، فهي على حدّ ذكر هذا الرحّالة قد بنيت "بالمرمر المنوّع أبيض وأحمر وأكحل وأخضر وسقف القبّة باللّوح والمسمار وفوقه ألواح الرّصاص مضروبة بالمسمار..."(١٢٠). ويضيف ابن الصبّاح أنّ قبالة قبر الرّسول(ص) من جهة الرّأس يوجد "تابوت من عود اليمن مزيّن بالذّهب والفضّة مملوء بالمسامير المزيّنة بالفضّة والذّهب وقبالة رأس أبي بكر مسمار من فضّة مقرون في الحائط علامة له، وقبالة رأس عمر سارية... ونخرج إلى الرّوضة ومسجد الرّسول والمحراب والمنبر وبينها وبين القبر عشر خطوات والمحراب معطّل لا يصلّى فيه أبدا إلاّ المنبر يخطب عليه يوم الجمعة...محراب النّبي معطّل لايزار وقدّام المحراب هناك حفيرة يجعل الزّائر رجليه فيها ويقبّل أين كان النّبي يجعل رجليه..."(١٢١).

ثمّ يستعرض ابن الصبّاح مجموعة المزارات والمقامات المقدّسة الموجودة بالمدينة وما حولها وهي قبر حمزة بن عبد المطّلب الواقع على مسير ضحوة من المدينة ومسجد قباء والعين الزّرقاء بقباء وبئر أريس بقباء وبئر النّبي(ص)، التي كان يتطهّر فيها كلّ جمعة بقباء، وقرية أبي بكر الصدّيق على مسير ضحوة من النّهار ومسجد النّفاق بناحية قباء(١٢٢). كما تحدّث ابن الصبّاح عن البقيع والمقامات القائمة به وذكر أنّه يقع "خارج الحرم النّبوي وداخل سور المدينة وهو ملاصق لحائط الحرم من الخارج في اتّجاه الشّرق بينه وبين الحرم قدر خمسين خطوة ومتّصل بعمارة الحرم وفيه قبّة العبّاس وداخلها قبور الحسن والحسين أبناء علي بن أبي طالب والعبّاس عمّ النّبي وبجوارهم قبر عقيل أخي علي وقبر إبراهيم ابن النّبي وقبر مالك الفقيه عالم المدينة ومفتي الأمّة الفاضل في الحسب والنّسب... وقبر عثمان بن عفّان صهر النّبي وقبر أمّ علي بنت أسيد في قاع النّخيل وقبر صفيّة بنت عبد المطّلب وقبر فاطمة ببيت الأحزان من وراء ظهر قبّة العبّاس" (١٢٣). ويوشّح ابن الصبّاح حديثه عن معالم المدينة ومواقعها بإيراد رسم عن الحرم النّبوي بمختلف مكوّناته وأجزائه(١٢٤).

ثالثا – الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة:

ضمّن ابن الصبّاح رحلته كثيرا من الإفادات والشّهادات الهامّة عن الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة السّائدة ببلاد الحجاز خلال النّصف الثّاني من القرن الثّامن الهجري/ الرّابع عشر الميلادي شأنه في ذلك شأن كثير من الرحّالة المسلمين، الذين زاروا هذه المنطقة على امتداد العصور المختلفة (١٢٥).

١- الأوضاع الاقتصاديّة:

أشار ابن الصبّاح في أكثر من موضع من رحلته إلى الظّروف الطّبيعيّة الصّعبة الغالبة على أرض الحجاز وعلى رأسها التّضاريس الوعرة والمناخ الحارّ والجافّ(١٢٦) وهو ما جعل الحياة الاقتصاديّة بهذا الجزء من بلاد العرب تتّسم بكثير من الصّعوبة وخاصّة منها النّشاط الزّراعي، الذي ظلّ محدودا ومقتصرا على بعض المناطق المحدّدة حيث يتوفّر الماء كما هو الحال في مدينة الطّائف ونواحيها، التي

وصفها هذا الرحّالة بـ"أنّها بلدة كثيرة الماء وكثيرة الشّجر منها تأتي الفواكه إلى مكّة الشّريفة في زمان الفواكه وبالقرب منها بلدة بجيلة وزهران، يأتيها الزّبيب من حرث السّمر... وحلفتهم وحبالهم حلفة المسد يسوّقونها إلى مكّة للآبار والدّلو لاستخراج الماء من الآبار كلّ بئر طوله وعمقه أربع وعشرون قامة من حلف المسد وهي جنس من أجناس حلفة الحجاز"(١٢٧) .

كما نوّه ابن الصبّاح إلى الانتشار اللاّفت لزراعة النّخيل بالمدينة القائمة أساسا على وفرة مصادر المياه الجوفيّة من عيون وآبار وفيها يقول:"مدينة يثرب في وسط النّخل يمينا وشمالا تسقى بماء العين الزّرقاء وماء الآبار وتطعم الكبار والصّغار" (١٢٨). أو قوله :"وأهل المدينة قوتهم من نخلهم: نخل المدينة كثير تبلغ غراستها في الطّول ستّة أميال وفي العرض ثلاثة أميال: غابة كبيرة... وهم يجدّدونها كلّ عام"(١٢٩). وقوله فيها أيضا:"وتربة المدينة سبخة والنّخل أرض الوحل أيّ الطّين بدليل قوله عليه السّلام: أكرموا عمّتكم النّخل المنبتة في الوحل المطعمة في المحل" أيّ في القحط. وقال عليه السّلام"لا يجوع بيت فيه تمر"(١٣٠).

أمّا مكّة فقد ظلّت وفيّة لشخصيّتها التّاريخيّة المتميّزة كمدينة التّجارة والتجّار الأولى في بلاد الحجاز وأكثر أسواق بلاد العرب رواجا وفيها يقول ابن الصبّاح "مكّة موضع بلا زرع ولا حرث إلاّ ما يجلب إليها من بلاد بعيدة على مسيرة ثلاثة أيّام وأكثر عيشها من التّمر والإبل والنّخل"(١٣١). كما يشير ابن الصبّاح إلى ظاهرة تخصّص الأسواق بالبلد الحرام أثناء حديثه عن "رحبة الزّرع" أو سوق الحبوب الواقعة بين "المسعى وحائط الحرم"(١٣٢)، موردا في الأثناء شهادات هامّة عن طبيعة العملة والمكاييل والموازين المعتمدة في أسواق مكّة خلال ذلك العهد بقوله:"رطلهم ستّة أواق وكيلهم موافق ودرهمهم فضّة وصرفهم فضّة وذهب وفلوس"(١٣٣). ويفهم ممّا أورده هذا الرحّالة أنّ قيام الأسواق ببلاد الحجاز لم يكن حكرا على المدن والمراكز الحضريّة الكبرى، فعلى امتداد الطّريق الواصلة بين مكّة والعقبة "كانت تنتصب الأسواق بعد كلّ مرحلة وكان الطّعام يباع بوزن الفضّة"(١٣٤). وفي السّياق ذاته يضيف ابن

الصبّاح أنّ خليص الواقع بعد رابغ الجحفة في اتّجاه مكّة يعدّ سوقا "من أسواق العرب فيها التّمر وحوايج العرب"(١٣٥).

٢- الأوضاع الاجتماعيّة:

شأنه شأن كثير من نظرائه الرحّالة المغاربة والأندلسيّين، الذين زاروا بلاد الحجاز خلال الفترة الإسلاميّة الوسيطة، أفرد ابن الصبّاح قسما ذا بال من رحلته للحديث عن الأوضاع الاجتماعيّة بهذه المنطقة، ناقلا لنا كشاهد عيان صورة حيّة ودقيقة عن المجتمع الحجازي بمختلف عناصره وسلوكيّاته. فقد حدّثنا ابن الصبّاح وبأسلوب لا يخلو من معاني المديح والإعجاب عن أهل مكّة وعن أصولهم وطباعهم بقوله:"وأهلها وملوكها شرفاء ونسبهم إلى ذريّة علي أبي زيد الرّضا الطّاهر في النّسب والأرباب من خير البشر يسمّون الشّرفاء الزّيديّة الحسنيّة ينتسبون إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، فيها المذكور والفارس المشهور أحمد بن عجلان شريف مكّة له سبعمائة عبد كلّهم شجعان أبطال وهو حاكم عدل وجائر على الظّالم هو وجيشه كلّهم فوارس رجال كلّهم فصحاء أفصح العربان. أهل مكّة أبطال لهم رجال وفرسان أصحاب العدد كالسّيوف القاطعة الهنديّة لا يقوم مقامهم أحد من أهل الحجاز والجبال لشدّة شجاعتهم وكرمهم وفصاحتهم. وكلّهم شبّان شداد البأس على عدوّهم حيث ما كان واحد منهم يردّ الجموع بحملة واحدة بالخفّة والسّرعة بالقوس المغربي رماة مصانعة في الحرب. وجميع الخصال الغالبة عليهم السّرعة وهي موروثة لهم من الجدّ الرّفيع إسماعيل وذرّيّته الكرام قدر ربيعة ومضر وعدي وآل عدنان"(١٣٦).

ويورد ابن الصبّاح مقارنة طريفة بين أهل مكّة وأهل اليمن فيقول:"صفة أهل مكّة وأهل اليمن السّمرة والحمرة والخضرة وهم كحل العيون الرّجال والنّساء في ذلك سواء ولكنّ في الطّبع اختلفت بينهم الطّبائع: أهل مكّة أهل سرعة وأهل اليمن عقول مهذّبة وهم أقوام كلامهم ليّن، الرّجال منهم والنّساء وأهل مكّة مسرعون في الكلام فصحاء اللّسان كثيرو السّرعة في الفعل. وقتل الرّوح عندهم مثل قتل روح العصفور. وأهل اليمن أصحاب العفّة والهدنة في الكلام، والبيع والشّراء كلام واحد، ولكنّ لباس أهل مكّة وأهل اليمن، الرّجال والنّساء سواء يتكوّن من مزقين طول العمر. الرّجل

رداء مشدود في وسطه ورداء آخر على منكبه. والشّعور الكحل مزيّنة بالحنّاء والكتم، لا يرون إلاّ بالشّعور قد أطالت إلى المناكب مكحّلن العيون بالكحل الأسود الإثمد. إلاّ أنّ صفة للرّجال والنّساء أنّهم كثيرو الشّفقة على الغريب. لكنّ أهل مكّة فيهم السّرعة والغضب بخلاف أهل اليمن. وهذا دليل على أنّ الطّبائع اختلفت بينهم، ذلك أنّ أهل مكّة من ذرّية إسماعيل وقيدار، وآل عدنان، وأهل اليمن من حمير وآل قحطان. فهم من العرب العاربة، وأهل مكّة والحجاز العرب المستعربة. وأهل اليمن أخوال أهل مكّة. وذلك أنّ إسماعيل تزوّج امرأتين من مضاض بن جرهم بن قحطان، فاختلفت بينهم الطّبائع دون العادة والألوان، فإنّها واحدة بدليل قوله عليه السّلام:"العرق دسّاس"(١٣٧). وعن عادات أهل مكّة في المأكل يورد الرحّالة الأندلسي قوله:"وعيشهم الغالب لحوم الجمال وإدامهم أكثره السّمن والغالب عليهم تمر العجوة المطمّر يخزّنونه ويدسّونه مثل دسّ التّين له حلاوة مثل العسل وكلّ أرض خصّها اللّه به وهم فرحون بأوطانهم يزعمون أنّ ليس لهم في الفرح مثال. وهكذا جميع البلاد والأوطان في أعين أهلها جنّة في المثال"(١٣٨).

وقد حدّثنا ابن الصبّاح عن مجاورته بالبلد الحرام وعمّا لقيه من حسن معاملة أهلها بقوله:"واللّه لقد جاورته وأهله سنة كاملة وأكثر، جازاهم اللّه عنّا خيرا رجالا ونساء، ما أحسنهم وجوها وأحسنهم كلاما، وما أضبطهم عادة وسيرة حسنة في الرّجال والنّساء، ومن سيرتهم الحسنة أنّه لا يدخل أحد منهم الطّواف إلاّ بشيء يتصدّق به بعد طوافه ويزكّيه، وكذلك نساؤهم طوافهم عند غروب الشّمس بين المغرب والعشاء الآخرة يدخلن الطّواف بأثواب حسان الغالب عليها الأزرق الملوي، مزيّنات بالحليّ والخلاخل من الفضّة ومقايس الذّهب، هم وأولادهم الصّغار، يتمايلن ويضربن بالأقدام..."(١٣٩). وفي سياق كلامه عن تجربته بمكّة تعرّض ابن الصبّاح بالحديث لفئة المجاورين من أهل اليمن بقوله:"ولقد رأيت أهل اليمن معنا مجاورين في مكّة شرّفها اللّه تعالى، يجاورن في مكّة سبعة أشهر بعد انصراف الحاج حتّى يزوروا قبر النّبي عليه السّلام ويرجعوا إلى مكّة وينصرفوا إلى بلادهم اليمن بعد خمسة أشهر...."(١٤٠).

ومن الظّواهر اللاّفتة، التي عاينها ابن الصبّاح بالحرم المكّي واعتبرها من الخوارق شأنه في ذلك شأن كثير من المجاورين بالبلد الحرام، خلال ذلك العهد، ظاهرة عدم هبوط حمام الحرم فوق الكعبة وفي ذلك يقول:"جاورت عند هذا البيت سنة متوالية لم أبرح فيها عن البيت ساعة واحدة لا في ليل ولا في نهار، وإنّي رأيت الطّير تأتي إلى قبالة البيت وتتنحّى عنه جانبا، وهذا دليل على من قال: إنّ هذا البيت موصول بالبيت المعمور، الذي في السّماء. ولقد رأيت من فضائل هذا البيت وعجائبه أنّ الطّير إذا جاع يأتي إلى ركن من أركان البيت ويقف حتّى يأتيه اللّه رزقه. ولقد رأيت الطّير حين يأتيه رزقه يصيح صيحة قويّة ويمشي يأخذ رزقه من اللّه ويقوم المجاورون بالتّكبير: اللّه أكبر اللّه أكبر. أنظروا إلى الطّير كيف تفهم أنّ تلك البيت بيت اللّه وبيت الرّحمة فالتجأ يطلب رزقه من اللّه، من موضع أكبر المواضع وأقربه للّه من جميع أقطار الأرض كلّها لأنّه موضع إجابة فكيف أنت يا عبد اللّه، لك عقل وفهم وتعلم أنّ قصد تلك البيت عليك فرض وتأبى عنه. هذا من كثرة غفلتك يا ابن آدم. ولقد رأيت الحمام في وسط الحرم تمشي بين النّاس وإذا خرجت من الحرم فرّت من النّاس. وهذا دليل على أنّ من دخله كان آمنا" [١٤١].

وقد توقّف الباحث الرّاحل محمّد الطّاهر الكردي عند هذه الظّاهرة، مثبتا بالصّور أنّ بعض حمام الحرم كان يقع على الكعبة في حين أنّ باقي الحمام كان لا يقف فوق البيت الحرام لعدّة أسباب أبرزها أنّ الكعبة منخفضة مقارنة بما حولها من مباني والطّيور تفضّل الأماكن المرتفعة، كما أنّ الكعبة ليست فيها أجزاء بارزة سوى الميزاب وهي ملساء ومفروشة بالحرير في حين أنّ الحمام يميل إلى الأشياء البارزة الخشنة ليستطيع التمسّك بها، كما أنّ سطح الكعبة مفروش بالرّخام ومعرّض لحرارة الشّمس الحارقة وهو ما يجعل الوقوف عليه أمرا صعبا[١٤٢]. هذا فضلا عن أنّ الكعبة ليست فيها فجوات تجذب إليها الحمام لبناء أعشاشه، لذلك فهي لا يمكن أن تكون مكانا جاذبا للطّيور للوقوف عليها[١٤٣]، خلافا لما كان شائعا زمن الرحّالة ابن الصبّاح أو زمن مواطنه الرحّالة أبي القاسم التّجيبي، الذي سبقه بالإشارة إلى هذه الظّاهرة دون أن يقدّم لها تفسيرا[١٤٤]. وتلقى وجهة نظر الكردي القائلة بحقيقة وقوع

حمام الحرم فوق الكعبة تأييدا صريحا لها من إشارة أوردها الأزرقي يذكر فيها أنّ البيت الحرام حين احترق زمن ابن الزبيّر ضعف بناؤه "حتّى أنّ الطّير ليقع عليه فتتناثر حجارته"(١٤٥).

كما أشار ابن الصبّاح إلى بعض البدع الشّائعة في مكّة، خلال ذلك العهد، والمتمثّلة في إقدام كثير من المجاورين والحجيج على الاغتسال بالماء النّازل من سطح الكعبة عبر ميزابها رجاء أن يطهّرهم ذلك الماء من الذّنوب وفي ذلك يقول:"ولو ترى أيّها القارئ والمستمع حين يمطر السّحاب ويقطر الميزاب ترى جميع المجاورين يقفون تحت الميزاب يغتسلون من ذلك الماء النّازل من سطح البيت رجاء أن تغسل تلك الرّحمة المنزّلة ذنوبهم فيغتسل الحجّاج منها رجاء لتطهير الذّنوب"(١٤٦). ومن عادات أهل مكّة، التي سجّلها ابن الصبّاح، احتفاؤهم الكبير بشهر رمضان من خلال الإكثار من الصّلاة وختم القرآن بالمسجد الحرام وفي ذلك يقول:"ونذكر أيضا رمضان مكّة والإشفاع في الحرم الشّريف في شهر رمضان المعظّم: يشفع في هذا الحرم الشّريف مائة إمام مشفّعين في الحرم، كلّ إمام يشفع بجماعة وكلّهم متوجّهون إلى الكعبة الشّريفة ويختمون من خمسة عشر إلى تسعة وعشرين وأكثر ختمهم في ليلة القدر خمس عشرة وسبع عشرة وإحدى وعشرين وقس على ذلك"(١٤٧).

وكما فعل قبله مواطنه التجّيبي(١٤٨) توقّف ابن الصبّاح عند ظاهرة تعدّد الأئمّة بالحرم المكّي وفي ذلك يورده قوله:"والإمام الشّافعي هو الأوّل في جميع الأوقات من الأئمّة على المذاهب الأربعة، التي في الأربعة محارب المتوجّهة وجوه الكعبة الشّريفة الأربعة: أوّل ما تقوم صلاة الشّافعي قبالة باب الكعبة وراء مقام إبراهيم، والكعبة متوجّهة بالغرب، وظهره في اتّجاه مطلع الشّمس. فإذا يسلّم الإمام على المذهب الشّافعي يقوم الإمام على المذهب المالكي متوجّها إلى الكعبة إلى ظهرها، ووجهه للكعبة متوجّها إلى مطلع الشّمس وظهره إلى غروب الشّمس. فإذا سلّم الإمام المالكي أقام الصّلاة الإمام الحنفي ووجهه إلى حجر إسماعيل قبالة الجنوب وظهره إلى الشّمال. فإذا سلّم أقام الصّلاة الإمام على مذهب أحمد بن حنبل فهو يصلّي آخر الوقت. وتلك هي المذاهب الأربعة في صلاة الصّبح يمتدّ وقتها إلى طلوع الشّمس

بالحمرة وكذلك صلاة العصر إلى الاصفرار وهو عنده في مذهبه أفضل. وكلّ إمام يصلّي في بقيّة الوقت حسب مذهبه في تحديد الأوقات. وعلى هذا اصطلح أئمّة مكّة في ترتيب أوقات الصّلوات، يسلّم الإمام على مذهب الشّافعي أوّلا ووراءه الإمام على مذهب مالك ووراءه الإمام على مذهب أبي حنيفة ووراءه الإمام على مذهب أحمد بن حنبل الشّيباني"(١٤٩). ثمّ ينتقل الرحّالة الأندلسي للحديث عن سكّان الطّائف والقرى المجاورة لها من الأعراب البدو والزرّاع بقوله:"منهم قوم سمر نشاطهم الحرث والزّرع أقوام صالحون لا يعلمون عددا ولا حسابا ولا الشرّ ولا الخير، لباسهم جلود المعز المدبوغ بالعروق الطيّبة له رائحة طيّبة مثل الجودر"(١٥٠).

وينهي ابن الصبّاح رحلته إلى بلاد الحجاز بالحديث عن أهل المدينة بقوله:"نصف صفات وعادات أهل يثرب وماءهم وهواءهم ومعاملاتهم وملوك مدينتهم. عمارتها من المجاورين وأهل البلد من عربه، من ذريّة الحسين بن علي بن أبي طالب (عليهما السلام) . سكّان أهل مدينة يثرب عربان من أفصح العرب، وبها موطنهم. الغالب على قوتهم التّمر من تلك الغيضة التي وصفناها..."(١٥١). ومن العادات السّائدة بالمدينة، التي تحدّث عنها ابن الصبّاح، عادة زيارة قبر الرّسول(ص) وفيها يقول:"واللّه لقد وقفت في أوّل ليلة من دخول ليلة جمعة، وكان الحرم ملآنا بالنّاس في وقت توجد فيه جميع الرّكائب. وكان النّور يطلع على قبّة القبر مثل البرق حتّى يعمّ الضّوء الأفق ويقوم جميع النّاس بالصّياح وهم يقولون: الصّلاة والسّلام عليك يا رسول اللّه حتّى ما تسمع بأذنك من كثرة الصّلاة والصّياح. وجاورته أيّاما فكان الضّوء كلّ ليلة يطلع ويتّسع ويضيء ويلمع كالنّهار من فلق الصّبح. تهبّ علينا رياح المسك لا تشبه الرّياح وجاورته مجاورة في كلّ صلاة من الصّلوات الخمس. يهبّ عليه نسيم الأفواح لا يشبه المسك الأذفر ولا الغبار بخلاف رائحة الدّنيا التي تنقطع وتنضح، ونور قبر رسول اللّه مستمرّ وله رائحة تدوم... ثمّ إذا قضى النّاس الزّيارة أغلق الحجرة الخدّام وهذا لحرمة المكان وخوفا من الظلاّم الخوارج والرّوافض لهذا يحتاج للضّبط والحرز والحفظ من شأن الطّوائف المبغضين للصّحابة الأخيار، وهكذا لا يصل إليهم إلاّ من يكون من أهل الخير، ولا يصل إليهم الأشرار،

حجبوهم عن خلاف القدوة بالبنيان المشيّد والحرز بالنظّار والخدّام والذين لا يغفلون عن أحد إذا تأخّر في الحجرة، حتّى إذا تأخّر أحدهم يخرجه الخدّام بالدّفع والضّرب بالقضبان لأنّ زيارة النّبي(ص) يجب أن تكون هيّنة خفيفة. ورحم اللّه عبدا زار وانصرف... واللّه لقد رأيت الطوّاشيّة والحبشيّة يدفعون المتثاقلين في الزّيارة، يضربونهم بالقضبان ويقولون لهم: اخرج رحم اللّه عبدا زار وانصرف"(١٥٢).

وكمرآة عاكسة لذهنيّة ذلك العصر كان ابن الصبّاح لا يجد حرجا في أن يصدّق بعض الاعتقادات الشّائعة، خلال ذلك العهد، من ذلك الاعتقاد بأنّ إبل ركبان الحجيج عندما تشرف على المدينة تجدّ في السّير وتنهمر دموعها شوقا وحنينا إلى مقام النّبي(ص) وفي ذلك يورد قوله:"واللّه لقد أشرقت وجوه الجمال والنّياق أعني إناث الجمال لمّا أشرفت على وادي العقيق مكان إراحة الجمال وهي رائحة إلى المدينة. واقترابها من قبر الرّسول(ص) كنت أسمعها وهي تبكي وأنا لا أصدّق حتّى وصلنا وادي العقيق. قال لي رفيق هو أحمد الحدّاد من قليوش: يا حاج عبد اللّه: أما ترى النّياق والجمال كيف تحنّ وتبكي. قلت سبحان اللّه. أحقّ هو، قال لي: انظر وسترى، فنظرت إليها فإذا هي تجدّ في السّير وتحنّ وتبكي مثل بني آدم، ويسمع لها حنين مثل الباكي والمنتحب بقوّة، يسمعها القريب والبعيد، فإذا رآها الحجّاج جدّوا في السّير: هي تحنّ فيعلمون أن قد قرب قبر النّبي فيستبشر بذلك الحجّاج. واللّه لقد رأيت دموع الجمال الكبار والصّغار والذّكور والإناث تحنّ مثل المتوجّع والدّموع تنهمر على خدودها مثل المطر، وما كنت أظنّ أنّ ذلك يصير من البهائم حتّى رأيت ذلك العجب في محبّة رسول اللّه(ص) مع أنّ معجزاته قليلة. وذلك أوّل ما رأيت من معجزاته بسبب فضل البقعة الشّريفة والنّبي الشّريف"(١٥٣).

ويختم الرحّالة الأندلسي كلامه عن دار الهجرة بالحديث عن ظاهرة الأوقاف والأعطيات، التي كان يقوم عليها عيش قسم كبير من سكّان مدينة الرّسول(ص) لا سيما من المجاورين الغرباء والفقراء والمساكين وفي ذلك يقول:"وعلى هذا القبر الشّريف والحجرة الشّريفة للزوّار أربعمائة صاع من التّمر الذي في غرى من المدينة ودائرتها وهو وقف وحبس على الزوّار الذين يزورون في كلّ عام، وعلى المجاورين،

مجاوري النّبي عليه السّلام، ولحجرته وقبره فتوح كثيرة للخدّام وعمارة الحرم وقبّة البيت. وهناك الهدايا والأوقاف تأتي وتجي من مشارق الأرض ومغاربها حتّى يفيض على الحرم الخير وعلى عمارته وخدّامه بالنّفقة والكسوة والهدايا الكبيرة من الذّهب والفضّة وأنواع الأثواب من الحرير والخزّ بأنواع الألوان من كلّ إقليم من عمائر المسلمين ومن أهل الهند يأتون بأنواع الهدايا من بلادهم. وأعظم حوائجهم يهدونها للنّبي عليه السّلام. وأهل كلّ إقليم يقدّمون ممّا عندهم أرفع الهدايا وأعظمها من خيرات الأرض كلّها. وتأتيه من الهدايا ما لا ينحصر عددها ولا يضبط وزنها. يعطى منها للغرباء وعلى الحجرة الشّريفة وللفقهاء والعلماء المجاورين عنده بالمدينة، والفقراء والمساكين"(١٥٤).

الخـاتمـة:

حازت بلاد الحجاز نصيبا وافرا من اهتمام الرحّالة ابن الصبّاح الأندلسي وذلك لأنّها كانت وجهته الرّئيسيّة في سفره الطّويل، الذي غشي مختلف بلدان المشرق الإسلامي خلال النّصف الثّاني من القرن الثّامن الهجري/ الرّابع عشر الميلادي وكان أداء فريضة الحجّ أبرز أهدافه ومقاصده. وشأنه شأن كثير من نظرائه الرحّالة المغاربة والأندلسيّين، الذين سبقوه أو الذين أتوا بعده، بدا ابن الصبّاح طوال رحلته مسكونا بحبّ الاطّلاع والرّغبة في الاستكشاف، لتكون بلاد الحجاز بما انطوت عليه من قداسة دينيّة لا تضاهى وثقل تاريخيّ كبير وجهة مغرية وقبلة مفضّلة شدّت إليها أحاسيس هذا الرحّالة كي يفردها بعناية خاصّة ويقضّي بين شعابها وحواضرها طورا مهمّا من جولته الواسعة بالجزء الشّرقي من العالم الإسلامي. وقد أمدّتنا رحلة ابن الصبّاح برصيد هامّ وثمين من المعلومات والمعطيات عن الصّورة التّاريخيّة لبلاد الحجاز خلال العهد موضوع الدّراسة وخاصّة منها تلك الشّهادات الحيّة عن الأوضاع الجغرافيّة والعمرانيّة بهذه النّاحية من العالم الإسلامي حيث قدّم لنا الرحّالة الأندلسي وصفا دقيقا لكثير من المسالك والمدن الحجازيّة بما حوته من معالم ومواقع لا سيّما تلك، التي لها صلة بظهور الإسلام والسّيرة النّبويّة والتي أفردها صاحب الرّحلة باهتمام خاصّ استجابة لعاطفته الدّينيّة الجيّاشة. وكما عني ابن الصبّاح على امتداد جولته بأرض الحجاز بالوجه الجغرافي والعمراني للبلاد فقد حرص أيضا على رصد كثير من وجوه الحياة الاقتصاديّة والاجتماعيّة السّائدة بمختلف نواحي هذا الإقليم وخاصّة ما يتّصل منها بأشكال كسب النّاس وأنماط عيشهم سواء كانوا في الحواضر أو في البوادي. وعلى الرّغم ممّا تخلّل رحلة ابن الصبّاح من مواطن الأسطورة والخيال وما شابها أحيانا من نظرة انطباعيّة وعاطفيّة، فإنّ ما انفردت به من أخبار وشهادات لا نعثر لها على نظير في كتب التّاريخ التّقليديّة يجعلها جديرة بالاهتمام والاعتبار كأحد المصادر الأساسيّة، التي لا غنى عنها لدراسة تاريخ الحجاز خلال المرحلة التّاريخيّة المشار إليها.

الرسومات والملاحق :

الحرم المكّي كما رسمه ابن الصبّاح :

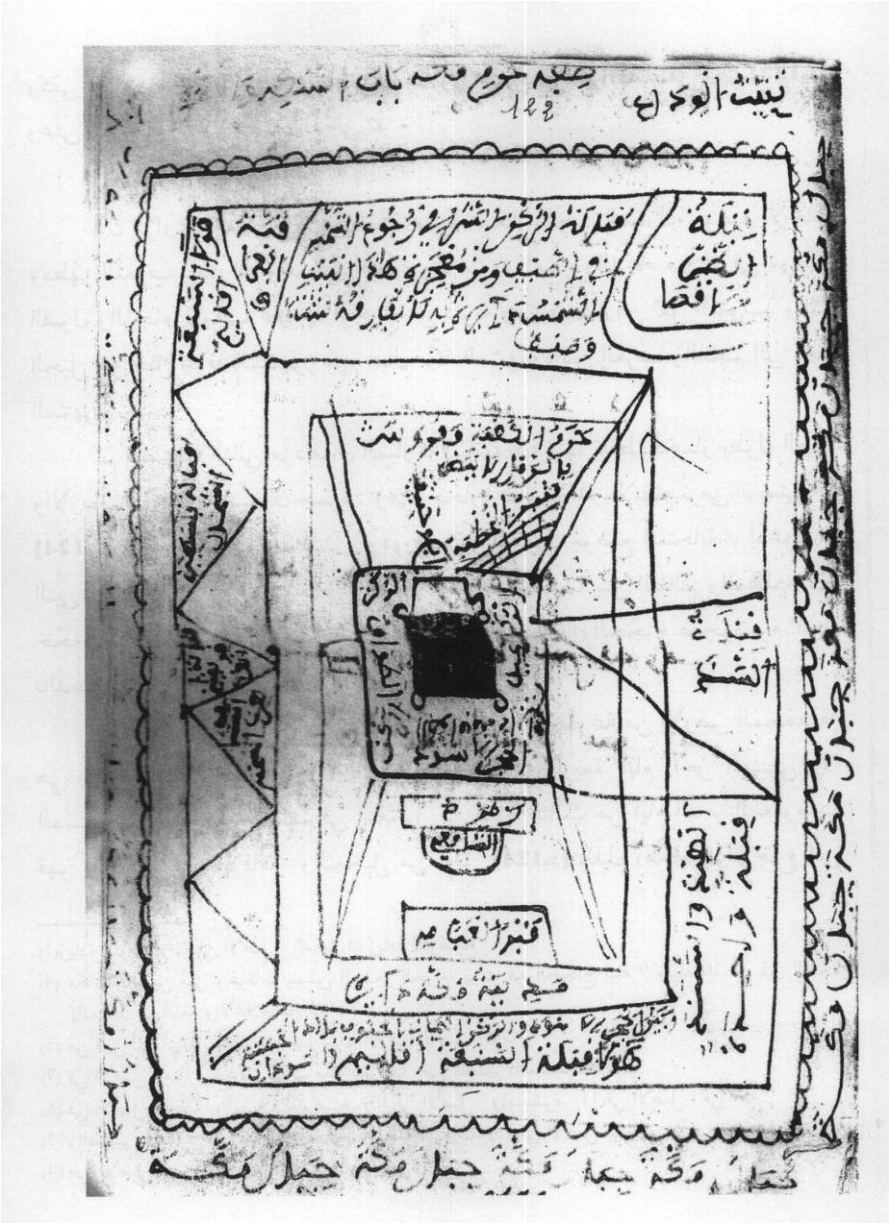

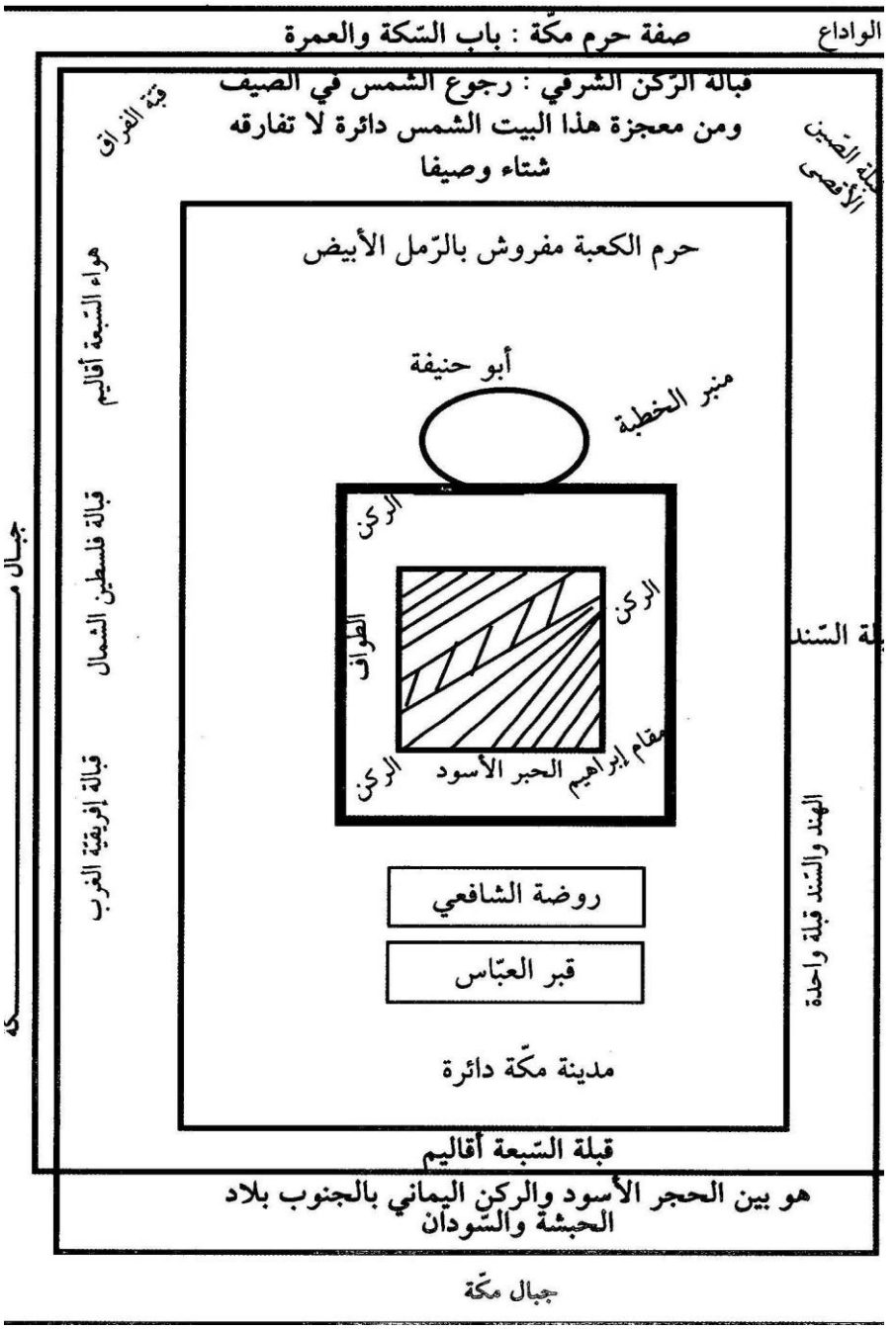
الوداع
صفة حرم مكّة : باب السّكة والعمرة
قبالة الرّكن الشرقي : رجوع الشمس في الصيف
ومن معجزة هذا البيت الشمس دائرة لا تفارقه
شتاء وصيفا
حرم الكعبة مفروش بالرّمل الأبيض
أبو حنيفة
منبر الخطبة
الركن
الركن
الطواف
الركن
مقام إبراهيم
الحبر الأسود
روضة الشافعي
قبر العبّاس
مدينة مكّة دائرة
قبلة السّبعة أقاليم
هو بين الحجر الأسود والركن اليماني بالجنوب بلاد
الحبشة والسّودان
جبال مكّة
جبّة الفرن
هواء السّبعة أقاليم
قبالة فلسطين الشمال
قبالة إفريقيّة الغرب
الهند والسّند قبلة واحدة

المشاعر المقدسة كما رسمها ابن الصباح :

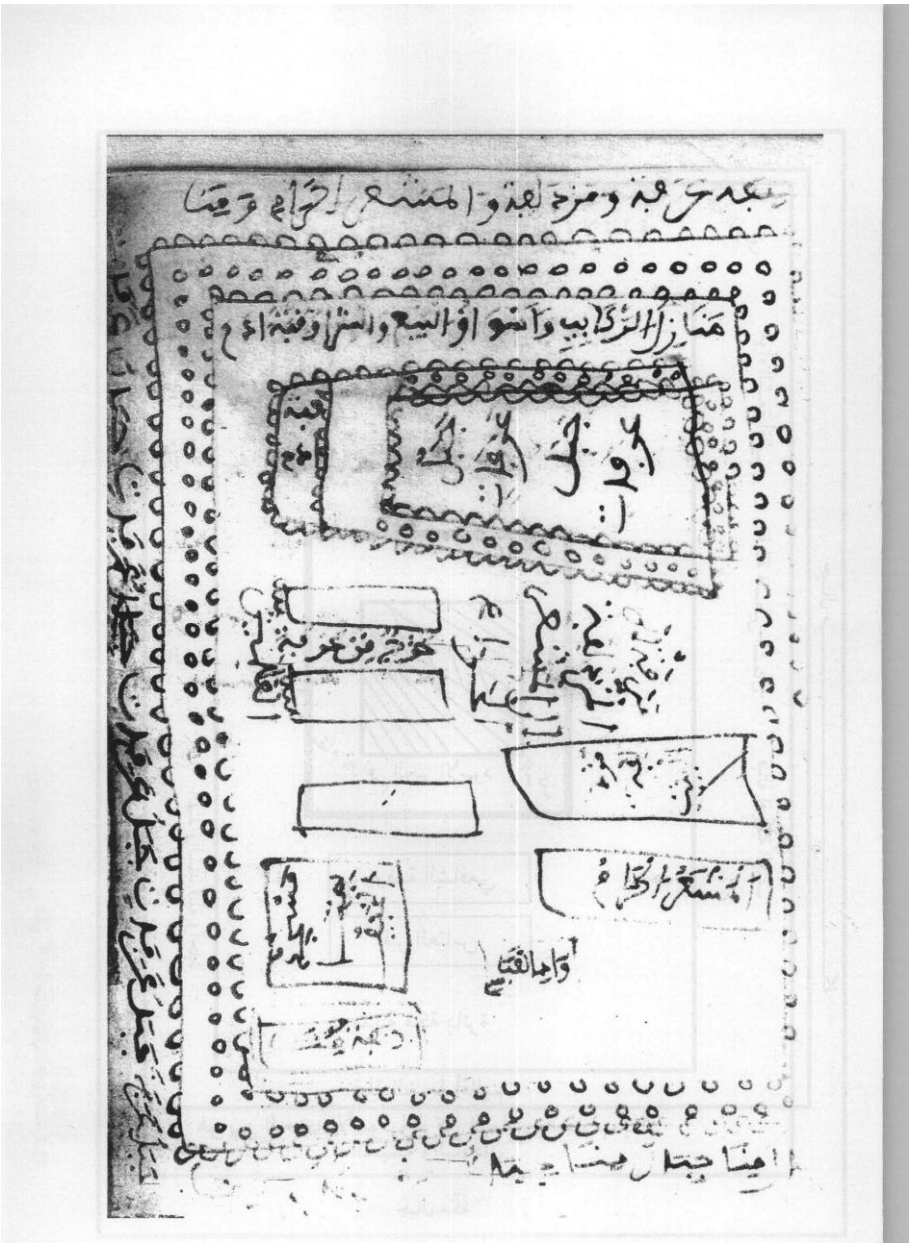

صفة عرفة ومزدلفة والمشع

صفة عرفة ومزدلفة والمشعر الحرام ومِنى

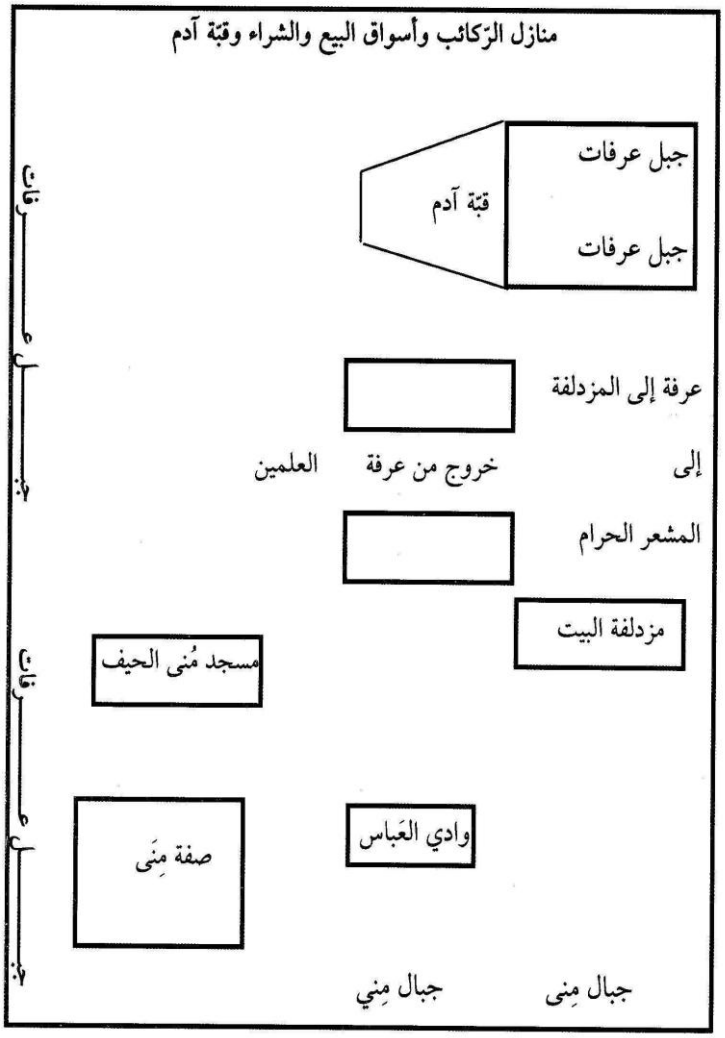

الحرام ومِنى :

الحرم النبوي كما رسمه ابن الصباح :

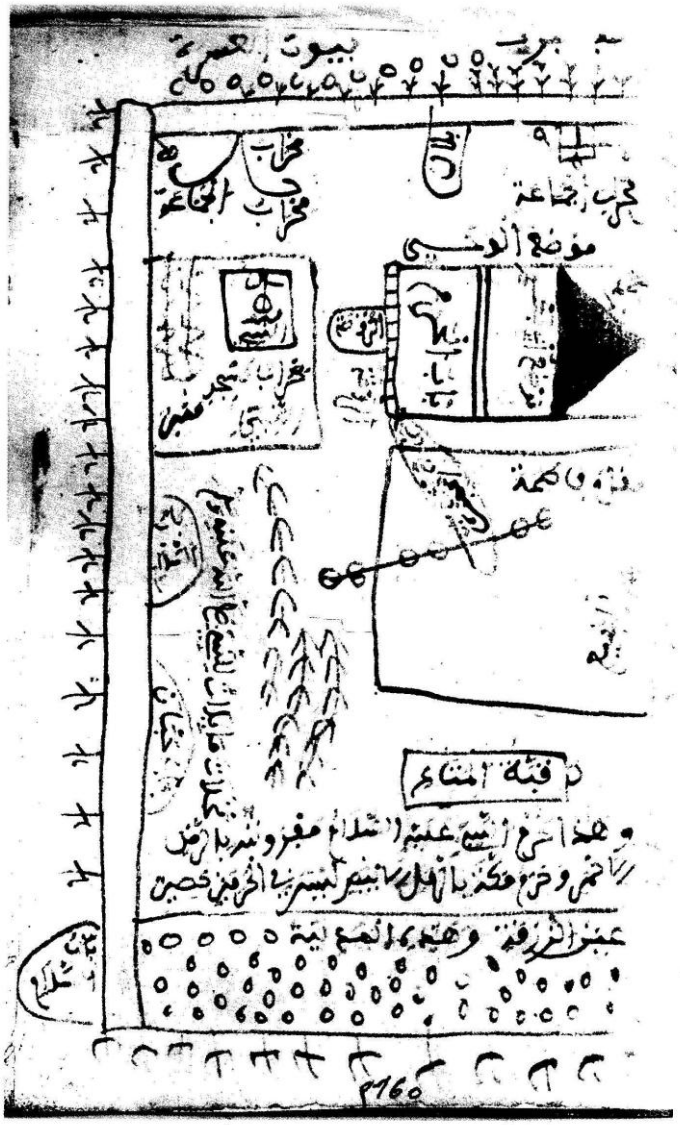

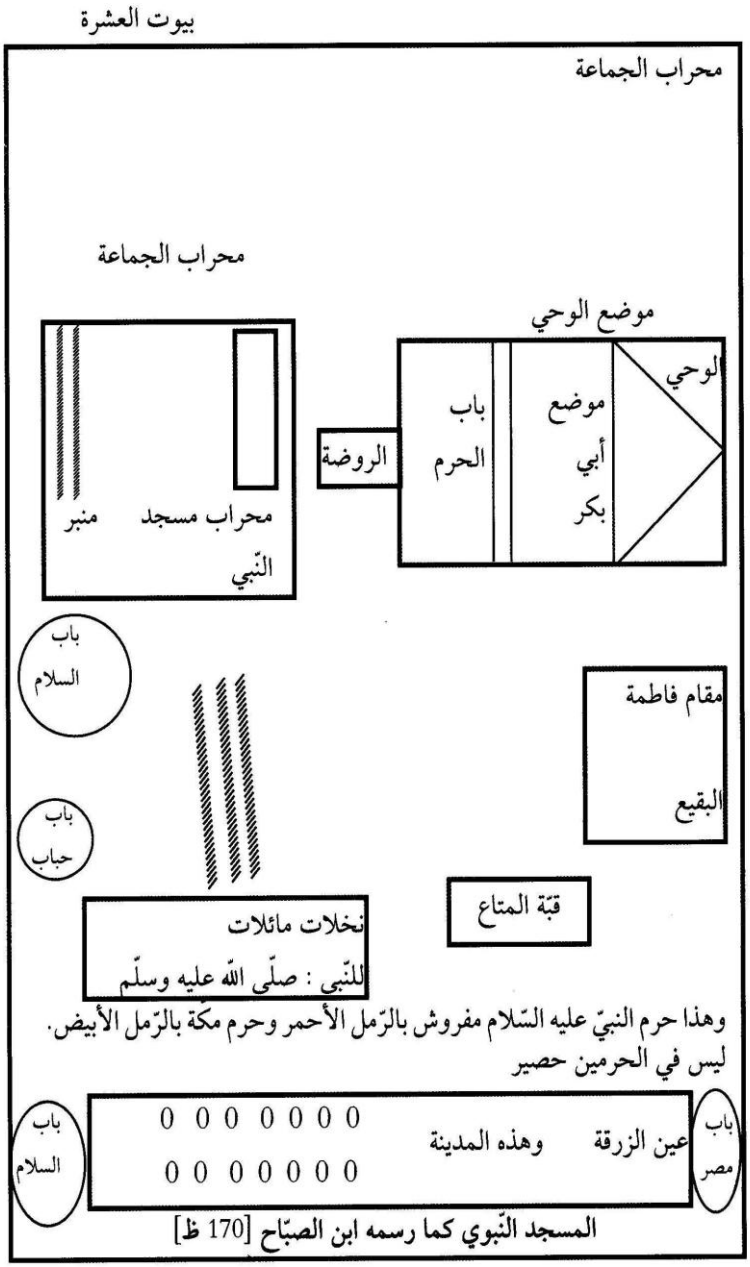

المسجد النّبوي كما رسمه ابن الصبّاح [170 ظ]

هوامش البحث ومصادره :

(١) العنقاوي (عبد الله عقيل)، "قراءة فيما جاء في مدوّنات الرحّالة المسلمين عن الحجاز في العصرين الأيّوبي والمملوكي (٥٧٩-٧٤٩هـ/١١٨٣-١٣٤٩م)" مقال منشور ضمن أشغال مجلّة المنهل، الإصدار السّنوي الخاصّ، ذو القعدة وذو الحجّة ١٤٢٦هـ-ديسمبر ٢٠٠٥ يناير ٢٠٠٦. ص٢٢٩. نوّاب (عواطف محمّد يوسف)، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السّابع والثّامن الهجريّين، الرّياض ١٤١٧هـ/١٩٩٦م. ص ١٢١. العافية (عبد القادر)، رحلة الحجّ ولقاء الشّيوخ: التجّيبي نموذجا (٦٩٦-٧٣٠هـ)، مركز التّراث العربي، الدّار البيضاء، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م. ص٧ وما بعدها. عبدولي (جمال)، "مكّة من خلال رحلة التجّيبي المسمّاة مستفاد الرّحلة والاغتراب"، بحث مقدّم ضمن أشغال الملتقى الدّولي الرّابع حول "الرّحلة والرحّالة في العالم العربي الإسلامي" المنعقد بتونس أيّام 14، 15 و16 أكتوبر 2006م تحت إشراف مخبر العالم العربي الإسلامي الوسيط ومنشور بالمجلّة التّونسيّة للعلوم الاجتماعيّة، عدد خاصّ، السّنة ٤٧، تونس ٢٠١٠م. ص٢٨٧.

(٢) العافية، المرجع نفسه، صص٢٥-٣٦. عبدولي،"مكّة من خلال رحلة التجّيبي..."، المقال نفسه، ص ٢٨٧.

(٣) حلاّق(حسّان)، مكّة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطّوطة، دار النّهضة العربيّة، بيروت-لبنان ١٩٩٦م. نوّاب (عواطف محمّد يوسف)، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السّابع والثّامن الهجريّين، الرّياض ١٤١٧هـ/١٩٩٦م. كتب الرّحلات في المغرب الأقصى مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين الحادي عشر والثّاني عشر والهجريّين، الرّياض ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م. التّازي(عبد الهادي)، مكّة في مائة رحلة ورحلة، مؤسّسة الفرقان الإسلامي، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

(٤) ابن الصبّاح(عبد اللّه)، أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق د. محمّد بنشريفة، دار أبي الرّقراق للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الرّباط ٢٠٠٨م. ابن الصبّاح(عبد اللّه)، نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق د. جمعة شيخة، مجلّة دراسات أندلسيّة، عدد خاصّ، العددان ٤٥-٤٦، تونس ٢٠١٢م.

(٥) ابن الصبّاح، المصدر نفسه، تحقيق د. جمعة شيخة، صص ث-ج، ٤-٥.

(٦) بنشريفة (محمّد)،"حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين من خلال رحلة عبد اللّه بن الصبّاح"، مجلّة مجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة، عدد١٠٢، ٢٠٠٤. ص١٤٨. شيخة (جمعة)،"بعض المظاهر الدّينيّة في رحلة عبد اللّه بن الصبّاح الأندلسيّ"، مجلّة دراسات أندلسيّة، عدد١٢، سنة ١٩٩٤م.ص٣٦.

(٧) ابن الصبّاح، المصدر السّابق، تحقيق د. محمّد بنشريفة، صص ٥٦. ابن الصبّاح، نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق د. جمعة شيخة، صص ث-ج، ١٠٣. بنشريفة، "حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، المقال نفسه، ص١٤٨.

(٨) شيخة،"بعض المظاهر الدّينيّة..."، مقال سابق، ص٣٦.

(٩) ابن الصبّاح، المصدر نفسه، تحقيق د. جمعة شيخة، ص ث.

(١٠) ابن الصبّاح، المصدر السّابق، تحقيق د. محمّد بنشريفة، ص ٥٦. ابن الصبّاح،المصدر السّابق، تحقيق د. جمعة شيخة، ص ج. بنشريفة، "حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، مقال سابق، ص١٤٩.

(١١) التّازي، مكّة في مائة رحلة ورحلة، ص٢٤.

(١٢) ابن الصبّاح، أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق د. محمّد بنشريفة، صص ٧٠،١٠٥. ابن الصبّاح، نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق د. جمعة شيخة، صص خ،٣٠-٣١. بنشريفة، "حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، مقال سابق، ص١٥٠. شيخة،"بعض المظاهر الدّينيّة..."، مقال سابق، ص٣٦.

(١٣) توجد النّسخة الأصليّة الوحيدة لرحلة ابن الصبّاح بالمكتبة الوطنيّة بتونس تحت رقم ٢٢٩٥ ونسخة مصوّرة منها بالمكتبة الوطنيّة للمملكة المغربيّة بالرّباط تحت رقم ١٨٧٤. الشّتيوي(أحمد)، مظاهر الحضارة من خلال رحلات المغاربة والأندلسيّين من القرن ٦-١٢هـ/ ١٢-١٨م، أطروحة دكتوراه دولة في الحضارة والآداب العربيّة (غير منشورة)، كلّيّة العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة بتونس ١٩٨٨م.ج١ص٤٥.

(١٤) ابن الصبّاح، أنساب الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق د. محمّد بنشريفة، ص٦٨. ابن الصبّاح، نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق د. جمعة شيخة، ص د. بنشريفة،"حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، مقال سابق، ص١٤٧.

(١٥) ابن الصبّاح، نسبة الأخبار وتذكرة الأخيار، تحقيق د. جمعة شيخة، ص د. شيخة،"بعض المظاهر الدّينيّة..."، مقال سابق، ص٣٧.

(١٦) ابن الصبّاح، المصدر نفسه، ص د. جمعة شيخة، ص د. شيخة،"بعض المظاهر الدّينيّة..."، المقال نفسه، ص٣٧.

(١٧) ابن الصبّاح، المصدر نفسه، صص ذ، ٢٤٩.

(١٨) المصدر نفسه، ص ش.

(١٩) المصدر نفسه،ص ١٣٣.

(٢٠) المصدر نفسه، صص س-ش، ١٣٣.

(٢١) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، صص س-ش، ٥٥، ٥٦، ١٣٥، ٢١٨. بنشريفة،"حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، مقال سابق، ص١٥٣.

(٢٢) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، صص ٢٥- ٢٦. بنشريفة،"حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، المقال نفسه، ص١٥٢.

(٢٣) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، ص٢٦.

(٢٤) المصدر نفسه، صص٣٤-٣٨.

(٢٥) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، صص٣٨-٤١. بنشريفة،"حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، مقال سابق، ص١٥٣.

(٢٦) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، صص٤٤-٥٢.

(٢٧) المصدر نفسه، صص٥٢، ٥٤-٥٦.

(٢٨) المصدر نفسه، صص٥٦-٥٧.

(٢٩) المصدر نفسه، ص٥٨.

(٣٠) المصدر نفسه، ص٥٨.

(٣١) المصدر نفسه، ص٦٣.

(٣٢) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، صص٦٥-٦٨. بنشريفة،"حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، مقال سابق، ص١٥٥.

(٣٣) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، ص٦٤.

(٣٤) المصدر نفسه، صص٧٢،٦٨.

(٣٥) بنشريفة،"حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، مقال سابق، ص١٥٦.

(٣٦) ابن الصبّاح، المصدر السّابق، تحقيق د.جمعة شيخة، ص٧٦.

(٣٧) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، صص٨٠-١٠٣. بنشريفة،"حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، مقال سابق، ص١٥٧.

(٣٨) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، صص١٠٤-١٠٧.

(٣٩) المصدر نفسه، صص١١٢-١٧٩.

(٤٠) المصدر نفسه، صص١٨٠-١٨٧.

(٤١) المصدر نفسه، صص١٨٨-٢٠٠.

(٤٢) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، صص٢٠٤-٢١٤. بنشريفة،"حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، مقال سابق، ص١٦٠.

(٤٣) ابن الصبّاح، المصدر نفسه، ص٢١٥. بنشريفة،"حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، المقال نفسه، ص١٦٠.

(٤٤) ابن الصبّاح، المصدر نفسه، ص٢١٨.

(٤٥) المصدر نفسه، صص٢١٨-٢١٩.

(٤٦) المصدر نفسه، ص٢٢٦.

(٤٧) المصدر نفسه، صص٢٣١، ٢٣٥،٢٣٨، ٢٤٣.

(٤٨) المصدر نفسه، ص٢٤٠.

(٤٩) المصدر نفسه، صص٢٣٥-٢٣٨.

(٥٠) ابن الصبّاح، المصدر نفسه، ص٢٣٤. بنشريفة،"حول اللّغة العربيّة عند المدجّنين..."، مقال سابق، ص١٦١.

(٥١) ابن الصبّاح، المصدر نفسه، ص٢٤٠.

(٥٢) المصدر نفسه، صص٢٤٠، ٢٤١،٢٤٢،٢٤٣.

(٥٣) نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص٣٠٩.

(٥٤) المرجع نفسه، ص٣٢٠.

(٥٥) العبدري (أبو عبد اللّه محمّد)، الرّحلة المغربيّة، تحقيق د. علي إبراهيم كردي، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م. صص٣٣٩،١١-٣٥٨. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص٣٢١.

(٥٦) ابن الصبّاح، المصدر السّابق، تحقيق د.جمعة شيخة، ص١٠٦.

(٥٧) المصدر نفسه، ص١٠٥.

(٥٨) المصدر نفسه، ص١١١.

(٥٩) المصدر نفسه، ص١٠٦.

(٦٠) المصدر نفسه، ص١٠٦.

(٦١) المصدر نفسه، ص١٠٦.

(٦٢) المصدر نفسه، ص١٠٦.

(٦٣) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، ص١٠٦. العبدري، المصدر السّابق، صص٣٤١-٣٤٢. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص٣٢٢.

(٦٤) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، ص١٠٧.

(٦٥)المصدر نفسه، ص١٠٧.

(٦٦) المصدر نفسه، ص١٠٨.

(٦٧) المصدر نفسه، ص١٠٨.

(٦٨)المصدر نفسه، ص١٠٨.

(٦٩) ابن الصبّاح، المصدر نفسه، ص١٠٦. العبدري، المصدر السّابق، ص٣٤٢. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة ، ص٣٢٣.

(٧٠) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، ص١٠٨.

(٧١) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، ص١٠٨. العبدري، المصدر السّابق، صص٣٤٢،٣٤٥. ابن رشيد(أبو عبد اللّه محمّد)، ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكّة وطيبة، بيروت-لبنان ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.ج٥ص٢٧٨. البلوي(خالد بن عيسى)، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السّائح (د.ت). ج٢صص١٢-١٣. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص٣٢٣.

(٧٢) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، ص١٠٩.

(٧٣) المصدر نفسه، صص١٠٩-١١٠.

(٧٤) ابن جبير(أبو الحسن محمّد)، تذكرة بالأخبار عن اتّفاق الأسفار، دار صادر، بيروت -لبنان ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م. ص١٦٥. العبدري، المصدر السّابق، ص٣٤٨. ابن بطّوطة (أبو عبد اللّه محمّد)، تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار صادر، بيروت -لبنان ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م. صص١٢٨-١٢٩. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص٣٣٢.

(٧٥) المصدر نفسه، ص١١٠.

(٧٦) المصدر نفسه، ص١١١.

(٧٧) المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٧٨) المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٧٩) المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٨٠) المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٨١) المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٨٢) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، ص١٥٨. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص٣٣١.

(٨٣) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، ص١٥٨.

(٨٤) البلوي، المصدر السّابق،ج١ص٢٧٨. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، صص١٣٧، ٣٢٨.

(٨٥) ابن الصبّاح، المصدر السّابق، ص١٨١.

(٨٦) المصدر نفسه، ص١٨١.

(٨٧) البلوي، المصدر السّابق،ج١ص٢٧٨.

(٨٨) ابن بطّوطة، المصدر السّابق،صص١١٢-١١٣. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص٣٢٩.

(٨٩) ابن الصبّاح، المصدر السّابق ص١٣٤. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص٣١٠.

(٩٠) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، ص١٢٢.

(٩١) ابن جبير، المصدر السّابق، صص٥٩، ٧٠-٧٥. التجّيبي (القاسم بن يوسف)، مستفاد الرّحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، الدّار العربيّة للكتاب، ليبيا-تونس ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م. صص٢٥٥-٢٥٦. العبدري، المصدر السّابق، ص٣٧٥. الفاسي (تقي الدين)، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، تحقيق عمر عبد السّلام التّدمري، بيروت١٤٠٥هـ/١٩٨٥م. ج١صص١٨١-١٨٢. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، صص٣٥٥-٣٥٦.

(٩٢) ابن الصبّاح،المصدر نفسه، ص١٢٢.

(٩٣) المصدر نفسه، صص١٢٢-١٢٣.

(٩٤) المصدر نفسه، صص١٢٣.

(٩٥) المصدر نفسه، صص١٢٣.

(٩٦) المصدر نفسه، ص١٢٥.

(٩٧) المصدر نفسه، ص١٢٦.

(٩٨) المصدر نفسه، صص١٣٨،١٢٦.

(٩٩) المصدر نفسه، ص١١٤.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص١٣٠.

(١٠١) ابن جبير، المصدر السّابق، ص٦٧.

(١٠٢) العبدري، المصدر السّابق، ص٣٦٧. ابن الصبّاح، المصدر السّابق، ص١٣٠.

(١٠٣) ابن الصبّاح، المصدر نفسه، ص١٣٠.

(١٠٤) المصدر نفسه، ص١٣٠.

(١٠٥) المصدر نفسه، ص١٢٤.

(١٠٦) المصدر نفسه، ص١٣٢.

(١٠٧)المصدر نفسه، ص١٣٢.

(١٠٨) المصدر نفسه، ص١٣٣.

(١٠٩) ابن جبير، المصدر السّابق، ص٨٥. ابن الصبّاح، المصدر نفسه، ص١٣٣.

(١١٠) ابن الصبّاح، المصدر نفسه، ص١٣٣.

(١١١) المصدر نفسه، ص١٣٣.

(١١٢) المصدر نفسه، ص١٣٣.

(١١٣) المصدر نفسه، صص١١٤-١١٦.

(١١٤) المصدر نفسه، صص٣-٤.

(١١٥) المصدر نفسه، ص١٣٦.

(١١٦) المصدر نفسه، ص١٣٦.

(١١٧) المصدر نفسه، صص١٥٩-١٦٥.

(١١٨) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(١١٩) المصدر نفسه، ص١٦٩.

(١٢٠) المصدر نفسه، ص١٧٢.

(١٢١) المصدر نفسه، ص١٧٣.

(١٢٢) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(١٢٣) المصدر نفسه، ص١٧٧.

(١٢٤) المصدر نفسه، صص١٦٠-١٦٠م.

(١٢٥) نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص٨٦.

(١٢٦) ابن الصبّاح، المصدر السّابق، صص١٠٥-١٣٤،١١١،١٠٦.

(١٢٧) المصدر نفسه، صص١٣٦-١٣٧.

(١٢٨) المصدر نفسه، ص١٧٥.

(١٢٩) المصدر نفسه، ص١٧٧.

(١٣٠) المصدر نفسه، ص١٧٤.

(١٣١) المصدر نفسه، ص١٣٤.

(١٣٢) المصدر نفسه، ص١٣٧.

(١٣٣) المصدر نفسه، ص١٣٧.

(١٣٤) المصدر نفسه، ص١٠٨.

(١٣٥) المصدر نفسه، ص١١٠.

(١٣٦) المصدر نفسه، صص١٣٥-١٣٦.

(١٣٧) المصدر نفسه، صص١٣٨-١٣٩.

(١٣٨) المصدر نفسه، ص١٣٧.

(١٣٩) المصدر نفسه، ص١٣١.

(١٤٠) المصدر نفسه، صص١٣٩-١٤٠.

(١٤١) المصدر نفسه، ص١٢٧.

(١٤٢) الكردي (محمّد طاهر)، التّاريخ القويم لمكّة وبيت اللّه الكريم، اعتنى بنشره د. عبد الملك بن عبد اللّه بن دهيش، دار خضر للطّباعة والنّشر، بيروت-لبنان ١٤٠٠هـ/٢٠٠٠م.ج٢ص٢٨١. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص,٢١٢

١٤٣- الكردي، المرجع نفسه، ج٢ص٢٨١. نوّاب، المرجع نفسه، ص٢١٣.

(١٤٤) التجّيبي، المصدر السّابق، ص٢٨٩. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص٢١٢.

(١٤٥) الأزرقي(أبو الوليد محمّد)، أخبار مكّة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق أ.د. عبد الملك بن عبد اللّه بن دهيش، مكتبة الأسدي، مكّة المكرّمة ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.ج١ص٢٩٤. الكردي، المرجع السّابق، ج٢ص٢٨٢.

(١٤٦) ابن الصبّاح، المصدر السّابق، صص١٢٣-١٢٤.

(١٤٧) المصدر نفسه، صص١٢٨-١٢٩.

(١٤٨) التجّيبي، المصدر السّابق، ص٢٤٠. نوّاب، الرّحلات المغربيّة والأندلسيّة، ص٢٥٢. عبدولي، "مكّة من خلال رحلة التجّيبي ..."، مقال سابق، ص٣٢٥.

(١٤٩) ابن الصبّاح، المصدر السّابق، ص١٢٩.

(١٥٠) المصدر نفسه، ص١٣٦.

(١٥١) المصدر نفسه، ص١٦٧.

(١٥٢)المصدر نفسه، صص١٦٨، ١٧٢-١٧٣.

(١٥٣)المصدر نفسه، ص١٥٨.

(١٥٤) المصدر نفسه، ص١٧٤.